

الأكاديمية العربية الدولية



الأكاديمية العربية الدولية
Arab International Academy

الأكاديمية العربية الدولية المقررات الجامعية

مقدمة

قضية المرأة قضية قديمة قدم الفكر البشرى نفسه : فان الانسان منذ خلق ولوع بالتمييز والمفاضلة ، حريص على تعرف أوجه الخلاف والمماثلة ؛ وهو قد وجد في « الذكورة » و « الأنوثة » ثنائية جديدة يضيفها الى قائمة ثنائياته المعهودة ، فقال مع فيثاغورس « ان هناك مبدأ خيرا خلق النظام ، والنور ، والرجل ؛ ومبدأ شريرا خلق الاضطراب ، والظلام ، والمرأة » ! وهكذا وجد الانسان موزعا للتفرقة بين الرجل والمرأة ، فخلق لنفسه من ذلك مشكلة ؛ وكان الرجل هو المسيطر ، فتلبست المشكلة بالمرأة ، ومن ثم نشأت تلك القضية الخالدة : « قضية المرأة » لا الرجل !

وظن الرجل في نفسه أنه « المعيار » فأصبحت « الرجولة » في نظره هي « القاعدة » السوية ، وصارت « الأنوثة » عنده مرادفة لظاهرة « غير طبيعية » ؛ وكأن « الرجل » وحده هو مقياس لجميع الأشياء ! ولعل هذا هو السبب في أن كلمة « الفضيلة » - في معظم اللغات الأوروبية المشتقة من اللاتينية - اشتقت من كلمة « الرجولة » ، كما أن كلمة « الرجل » - في بعض هذه اللغات - قد أصبحت مرادفة لكلمة « الانسان » !

وأما « المرأة » فقد ظلت هي « الموجود الآخر » أو « الجنس الثاني » الذي كتب عليه أبد الدهر أن يبقى مغلفا بالأساطير والتهاويل والخرافات ! وارتبطت في أذهان الكثيرين - خصوصا في بلاد الشرق - كلمة « المرأة » بكلمة « الحريم » ، فأصبحت أثنى الانسان - دون غيرها من اناث « المملكة الحيوانية » - سرا منيعا تتضارب حوله الأقوال ، ولغزا صعبا يحاك حوله الأقاويص والأمثال ، دون أن يقوى أحد على اماطة اللثام عما أحاط به من سحر وشعر وخيال !

ثم جاء علماء النفس بنظرياتهم في الليبدو وعقدة أوديب وعقدة الخضاء وعقدة النقص وعقدة الذكورة ، فلم يكن من شأن « عقدهم » هذه سوى أن تزيد المشكلة تعقيدا على تعقيد، حتى لقد أصبح « الرجل » يفسر كل سلوك المرأة بأنه وليد شعورها بالنقص ، ورغبتها الحادة في « تقليد » الرجل ! وهكذا أصبحت كلمة « المرأة » علما على ذلك « المخلوق الغريب » الذي لا سبيل الى فهمه أو فض أسرارهِ ، وصارت « الأثنى الخالدة » مفهوما مطلقا مجردا يلتجئ اليه الرجل كلما عز عليه تفسير سلوك واحدة من بنات حواء ! أما الأدباء ورجال القلم فقد وجدوا في عبارة « فتش عن المرأة » مفتاحا سحريا أرادوا به أن يحلوا كل مشاكل المجتمع الناشبة عن الصراع بين الجنسين ؛ وكأن لهذه العبارة من السحر ما تستطيع معه أن تمحو المشكلة نفسها بجرة قلم ! ثم أثيرت المناقشات حول المفاضلة بين الرجل والمرأة ، أو المساواة بينهما ، فلم يكن من شأن كل تلك المناقشات

العقيمة سوى أن تزيد القضية تعقدا وتشابكا : إذ أصبحت المرأة تقف وجها لوجه أمام الرجل ، تناضله وتذود عن نفسها ، كأنما هي بازاء خصم عنيد جائر !

ومن هنا فقد انتهى الأمر بالمرأة الى الشك في قدرة الرجل على فهم نفسياتها ، حتى لقد قالت أخيرا إحدى الكاتبات في مقدمة كتاب ضخّم لها عن المرأة : « ان كل ما كتبه الرجال عن النساء مرفوض مردود ، لأن الرجل قد نصب نفسه خصما وحكما في وقت واحد » ! ألم يقل بلزاك - في كتابه « فسيولوجية الزواج » - موجها الحديث الى الرجال - : « لا تأبهوا بأنات النساء وصرخاتهن وآلامهن : فان الطبيعة نفسها هي التي وضعت المرأة تحت تصرف الرجل ، وهي التي أرادت لها على أن تنوء بالأطفال والأشجان ، وأن تتحمل ضربات الرجل وشروره ! لا تنهوا أنفسكم بالقسوة أو الصلابة : ففي كل قوانين الأمم التي نعدّها متحضرة ، كان الرجل هو الذي يضع الشرائع المحددة لمصير النساء ، مستندا في ذلك الى العبارة الحاسمة : « الويل للضعفاء ! الويل للمهزومين ! » ؟ ألم يقل نيتشه - في معرض حديثه عن المرأة على لسان نبيه زرادشت : « ان الرجل يجب أن ينشأ للحرب والقتال ، أما المرأة فيجب أن تعد للترويح عن المحاربين ، وكل ما عدا ذلك فهو حمق وضلال » ! ؟ فكيف ترتضى المرأة اذن حكم الرجل ، وهي تعلم أنه قد نسب لنفسه في كل زمان ومكان ، لا الأولوية والسبق فحسب ، بل السيادة

المطابقة والامتياز التام ؟ أجل ان التوراة قد قالت بأن الله خلق آدم أولا ، ثم خلق حواء من ضلعه بعد ذلك ؛ ولكن الرجل لم يقنع بهذه الأولوية ، بل هو قد أراد أن يجعل من نفسه خالقا للمرأة نفسها ، فقال على لسان نيتشه : « ان الرجل هو الذى خلق المرأة ؛ وهو قد خلقها من ضلع الهه ، أعنى ببضعة من مثله الأعلى ! »

وليس بدعا أن يظن الرجل فى نفسه أنه هو الذى خلق المرأة : فان الرجال بالفعل قد خلقوا صورة « الأثنى الخالدة » ؛ خلقوها بأوهامهم وأحلامهم وآلامهم وآمالهم ! وسواء أكانت المرأة فى نظر الرجل سحرا أم سرا ، غانية أم ملكا ، غاوية أم مرشدة ، مسيئة أم ملهمة ، شيطانا خبيثا أم الهة راعية ، فانها فى كل هذه الحالات لا بد من أن تتخذ فى نظره صورة « الموجود الآخر » الذى تبرز فيه الحياة بالموت ، وتختلط فيه الطبيعة بالصناعة ، ويتعاقب عنده النور والظلام ! ولعل هذا هو السر فى أن « المرأة » قد بقيت فى نظر الرجل لغزا عسيرا لا سبيل الى فهمه أو تبديد ما أحاط به من غموض !



أما بعد ، فاننا لم تقدم على كتابة هذا المؤلف لحل مشكلة ظلت حتى الآن مستعصية على الحل ، بل انما أردنا أن نحاول وضع المشكلة وضعا صحيحا ، حتى يكون فى دراستنا لسيكولوجية المرأة ما قد يعيننا على فهم ذلك « اللغز الأبدى »

الذى طالما تفنن الرجل فى تعقيده ! ولسنا نزعم أننا قد استطعنا أن نميط اللثام عما أحاط بذلك « اللغز » من غموض وشعر وخيال ، ولكننا نظن أن القارىء قد يجد فى تضاعيف دراستنا للتطور النفسى الذى يختلف على المرأة خلال مراحل نموها ، ما قد يعينه على تكوين صورة صحيحة لذلك « المخلوق الغريب » الذى كثيرا ما نضفى عليه صفات السر والسحر ! وسيجد القارىء فى ختام هذا البحث أن كلمات « الذكورة » و « الأنوثة » قد أخذت تفقد طابعها المطلق الأجوف ، وأن تلك الثنائية الحاسمة التى اعتدنا أن نقيمها بين « الرجل » و « المرأة » قد أخذت تتضاءل شيئا فشيئا ، حتى ليكاد لفظ « الانسان » وحده هو الذى يطغى على كل اعتبار آخر . ولكننا نبادر فنبيه القارىء الى أننا لا نريد بذلك أن نقضى على الفوارق بين الجنسين - فتلك سنة الطبيعة ولسنا نملك حيالها شيئا - وإنما نحن نريد أن نقضى على تلك المفهومات المجردة التى اعتاد الانسان أن يلتجئ اليها فى تفسيره لسلوك المرأة ، حتى لاتظل « الأنوثة » فى نظرنا مرتبطة بمعانى السلبية المطلقة ، والضعف التام ، والقصور بوجه عام . ونحن نرجو فى الختام أن نكون قد أصبنا حظا من النجاح فى هذا السبيل ، ونأمل ألا يكون قد خانتنا الحظ فى الكشف عن بعض الجوانب الغامضة من شخصية المرأة .

المصطلح الأول

الفروق البيولوجية بين الجنسين

١ - ليس أيسر من أن يقال ان الرجل هو « القضيب » والمرأة هي « الرحم » ؛ أو أن يعرف الرجل بأنه « الحيوان المنوى » والمرأة بأنها « البويضة » ، كما فعل ألفريد فوييه (A. Fouilleé) - مثلاً - في كتابه الموسوم باسم « المزاج

والخلق » : « Le Tempérament et Le Caractère » ، ولكن هل يكفي اختلاف عضو التناسل لدى الرجل والمرأة لفهم نفسية كل منهما وتفسير شتى مظاهر سلوكهما ؟ أو هل تصلح الفروق البيولوجية القائمة بين الجنسين أساساً نستند اليه في وضع فروق سيكولوجية حاسمة بين الواحد منهما والآخر ؟ - تلك هي المشكلة الأولى التي لا بد لنا من أن نتعرض لدراستها بادية ذي بدء ، حتى نستطيع أن نعرف على وجه الدقة الى أي حد تتحكم العناصر البيولوجية في مصير المرأة .

وهنا نجد أن علم النفس الفسيولوجي هو الكفيل باظهارنا على العلاقة الوثيقة التي تربط سلوك الفرد بمظاهر نموه البيولوجي ،

وحالة نشاطه الهرموني ؛ حتى لقد ذهب بعض العلماء الى أن
 « المعادلة النفسية » للفرد ترتد في نهاية الأمر الى « معادلته
 الغددية » . وليس من شك في أن الصلة قوية بين « الغريزة
 الجنسية » (ان صح هذا التعبير) والهرمونات التناسلية ، كما
 أظهرتنا على ذلك تلك التجارب العديدة التي أجريت على الحيوان ،
 وكما تبين لنا بوضوح من النتائج المختلفة التي توصلت اليها
 دراسات الپاثولوجيا (أى علم الأمراض) في المجال البشرى .
 ونحن نعرف أن فترة التهيج الجنسي لدى الحيوانات ، إنما تحدث
 عادة أثناء الربيع ، فيكون لدى الحيوان ميل الى المباشرة ونزوع
 واضح نحو السفاد^١ . ولكننا لو استأصلنا مثلاً خصيتى
 الضفدع ، فإن هذا الاستعداد الجنسي لا يلبث أن يختفى ،
 فتختفى معه الغريزة التناسلية ، ويصبح الذكر في حالة عدم
 اكتراث تام بالنسبة الى الأنثى . فإذا ما حققنا هذا الضفدع
 المخصى بخلاصة الخصيتين (سواء أكانت مستمدة من أحد
 الطيور أم من حيوان ثديى أم من أى نوع من أنواع الزواحف)
 فإن الرغبة التناسلية لا تلبث أن تعود الى الظهور لدى ذلك
 الضفدع ، وبالتالي فإن نزوعه الى الجماع سرعان ما يأخذ مجراه
 الطبيعى . وقد أثبت العالم البيولوجى اشتيناخ (Steinach)
 (فى تجارب مشهورة قد أصبحت اليوم كلاسيكية) أن مخ
 الذكر ونخاعه الشوكى ينطويان أثناء الربيع على « مبدأ شبقى »^٢

(١) « السفاد » فى اللغة العربية هو النكاح أو الوطء بالنسبة الى الحيوانات .

(٢) (Principe érotisant)

بحيث اننا لو حققنا أى ذكر مخصى بخلصة تلك الأعضاء تحت الجلد ، لترتب على ذلك ظهور الغريزة الجنسية من جديد لديه ، وكأن الغدة التناسلية قد أنتجت فى فصل التهيج الجنسى هرمونا يشيع فى الجهاز العصبى كله النزوع الى المباشرة !

وهناك تجارب أخرى مشهورة قام باجرائها على فصيلة الفراخ (Gallinacés) العالم الفرنسى پيزار (Pézard) ، فاستطاع بواسطتها أن يظهرنا على أن الديك يختلف عن الدجاجة من حيث لون الريش ، ونمو الزوائد المخيلية ، ونمو العرف ، والصياح الرنان ، والحسية الجنسية ، والنزوع الغريزى نحو المقاتلة . فاذا ما استأصلنا الخصيتين من الديك ، طرأ عليه تحول واضح تبدو مظاهره فى كل من الناحيتين الجسمية والنفسية : اذ لا يلبث صياحه الرنان أن ينقطع ، كما لا يلبث عرفه أن يضم ، فضلا عن أن نزوعه الى المقاتلة سرعان ما يختفى ، وغريزته التناسلية سرعان ما تضعف ، بل قد تحل محلها غريزة الأثى بخصائصها المعروفة . بيد أن الملاحظ فى مثل هذه الأحوال أن لون الريش لا يتغير ، كما أن الزوائد المخيلية قد تستمر فى النمو كالمعتاد ، فى حالة ما اذا كانت العملية قد أجريت على حيوان صغير السن . وأما اذا أجرينا هذه العملية نفسها على الدجاجة ، فان ريشها لا يلبث أن يتساقط ، لكى ينمو مكانه ريش ملون زاه (من نوع ريش الذكر) ، كما أن عرفها ومخالبها لا تلبث أن تأخذ فى النمو ، حتى أن الديك الذى استأصلنا خصيتيه ، والدجاجة التى استأصلنا مبيضها ، ليصبحان أشبه ما يكون كل منهما بالآخر ! أما اذا

عدنا فحقنا ذلك الحيوان الذي استأصلنا غده التناسلية بحلاصة تلك الغدد أو اذا ما طعمناه بغدد أخرى جديدة ، فاننا نلاحظ أن مظهره الأصلي لا يلبث أن يعود الى الظهور . وهكذا يعود العرف الى النمو ، لكى يعقبه ظهور الصياح الرنان ، ومظاهر النشاط الجنسي ، والنزوع الغريزي نحو المقاتلة . بل اننا لو استأصلنا مبيضى الدجاجة ، ثم عدنا فحقناها أو طعمناها بحصيتى ديك ، فانها لا تلبث أن تصبح كالديك ، كما أنها سرعان ما تكتسب معظم خصائص الذكر ، مثل النزوع الى المقاتلة ، والحمية الجنسية . . . الخ^١ .

أما فيما يتعلق بالآثار النفسية التى تترتب على استئصال الغدد التناسلية لدى الحيوانات الشديدة بصفة عامة ، ولدى المستأنس منها بصفة خاصة ، فان خير مثال لها ذلك الفارق الكبير الذى نشاهده بين سلوك الثور المخصى وسلوك الثور الطليق . ونحن نعرف أن نتائج التجارب التى أجريت على الحيوان ، تنطبق الى حد كبير على الانسان ، كما تدلنا على ذلك آثار الاخضاء (Castration) لدى الرجل ، حينما تجرى عليه هذه العملية فى مرحلة سابقة على دور المراهقة . فالغريزة التناسلية لا تظهر لدى الخصى ، والخصائص الجنسية الثانوية من مورفولوجية وسيكولوجية لا تجد عنده مجالا للظهور ، وهذا هو السبب فى أن للخصى (L'eunuque) « معادلة سيكو - فسيولوجية »

Cf. Dr. Jean Delay . "La Psycho — Physiologie (١) Humaine" P. U. F. 1945, P. 50 — 52.

خاصه ، تختلف اختلافا كبيرا عن « معادلة » الرجل العادى
السوى .

٢ - وقد أدت نتائج الخصاء عند الذكور والاناث بالعلامة
مارانون (Maranon) الى القول بأن الكائنات كانت فى البدء
ذات جنس مزدوج ، ثم لم تلبث أن خضعت لضرب من التطور
فاتقلت من « الطراز المؤنث » الى « الطراز المذكر » . ومعنى
هذا أن المرأة هى الأصل الذى اشتق منه الذكر ، فهى « الصورة
الأولى » للنوع البشرى ؛ وأما الرجل فانه « الصورة
الثانية » التى تفرعت عن ذلك الأصل . واذا صحت هذه النظرية
فإن الذكر لن يكون سوى « أنثى متفاضلة » ، بمعنى أنه ينطوى
فى أثنائه على « أنثى كامنة » هى الجنس الأصلى الذى صدرت
عنه كل الثدييات . وهذه الأنثى الكامنة هى بطبيعة الحال على
استعداد دائم لأن تظهر بشكل واضح ، حينما تستأصل تلك
الغدد الزائدة التى تعوق ظهورها . واذا فان الفروق الجنسية
بين الذكر والأنثى ليست فروقا جوهرية أصلية ، بل هى فروق
فرعية مستجدة . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول ان التركيب
الجنسى لأفراد كل فصيلة ، أساسا مشتركا يحتمل التذكير
والتأنيث ؛ وهذا ما عبر عنه مارانون بنظريته فى « الامكانية
الجنسية المتعادلة » (Équipotentialité Sexuelle)^١ .

حقا ان لكل من الذكر والأنثى هرمونات خاصة ، وخصائص
بيولوجية محددة ؛ ولكن ربما كان من الخطأ أن نعهما بمثابة

(١) ارجع الى الترجمة الانجليزية لكتاب العالم الاسبانى مارانون الموسوم باسم
« تطور الجنس » (الفصل الثانى) .

وحدتين مستقلتين تقوم كل منهما بذاتها ، بينما هما في حقيقة
 الأمر حالتان متماستان ، قد يبلغ بهما التقارب أن يندمجا معا
 ليكونا حالة مختلطة هي ما يعرف بالختى Hermaphrodite وهكذا
 نجد أن كثيرا من علماء الجنس يرفضون التحدث عن « نوع
 مذكر » و « نوع مؤنث » ، لأنهم يعلمون أن ليس ثمة سوى
 سلسلة طويلة من الحالات الجنسية التي تمتد ابتداء من « الختى »
 حتى تلك الأشكال المعتدلة التي تكاد تكون سوية طبيعية .
 وربما كان من بعض مزايا هذه النظرة الجديدة الى « الجنس »
 أنها تساعدنا على فهم الكثير من الحالات الجنسية التي طالما نظر
 اليها الناس على أنها « انحرافات غريبة » أو حالات شاذة ، مثل
 حالة « التخثث » وحالة « الجنسية المثلية » (Homosexualité)
 هذا الى أننا نعلم من دراستنا للكثير من الحالات النفسية عموما
 أن الخلاف بين ما هو سوى (Normal) وما هو مرضي (Pathologique)
 إنما هو مجرد خلاف كمي . وقد دلتنا التجارب في مجال الفروق
 الجنسية على أنه ليس من الصحيح أن ثمة « رجولة خالصة »
 أو « أنوثة خالصة » . وإذا لم يكن في استطاعة أحد اليوم أن
 يفخر بأنه « رجل » تام الرجولة ، فبأي حق نحكم بالغرابة أو
 الشذوذ على قوم بلغت درجة « الرجولة » عندهم حدا أدنى
 بقليل مما يوجد لدينا ؟ ان كل ما هنالك هو أن هؤلاء القوم قد
 أخذوا من « الجنس الآخر » بقسط أوفر مما أخذنا ، فلذلك
 ظهرت لديهم حالة « الاختلاط » بشكل أظهر وأوضح . ولكن
 مهما كان حظنا من « الذكورة » ، فإن من المؤكد أننا نحمل في

ثانياً تكويننا الجسماني والنفسي قسماً قل أو كبير من « الأنوثة » !
وقد دلتنا التجارب على أن التمييز التام بين الجنسين قد يكون
ضرباً من المستحيل . وهذا ما عبر عنه بيدل (Biedel) بقوله
ان الرجل الخالص ، والمرأة الخالصة ، هما حالتان قلماً يلتقي
بهما المرء في الظروف العادية .

واذن فان كل ما يميزنا عن أولئك الذين قد نعدّهم شاذين
منحرفين ، انما هو زيادة حظنا من الافرازات الهرمونية الخاصة
بالذكر . وقد كنا جميعاً في البداية متفقين في الاتصاف بنزعة
« جنسية مثلية » كامنة ، ثم توقف النمو الجنسي عند البعض منا
فبقى على حاله ، بينما استمر الافراز الهرموني عند البعض الآخر
فانتقل الى مرحلة أخرى . واذا كنا لحسن الحظ قد انتقلنا الى
مرحلة النضج الجنسي ، وأصبحنا أميز من حيث « الذكورة » ،
فذلك لأن هرمونات الذكر قد تغلبت فينا على هرمونات الأنثى ؛
وانه لمن المعروف بيولوجياً أن الاناث والذكور يفرزون هرمونات
مختلطة ، بنسب وكميات متفاوتة . فهل يكون معنى هذا أن
الرجل هو « التستسترون » (testostérone) (هرمون الذكر)
وأن المرأة هي الفوليكلولين (Folliculine) (هرمون الأنثى) ؟
أو هل تكون مشكلة الفروق الجنسية مجرد مشكلة كيميائية
هرمونية ؟ ان بعض علماء الفسيولوجيا ليذهبون الى أن كل
مظاهر الانحراف أو النقص في الغريزة الجنسية - سواء عند
المرأة أم عند الرجل - انما ترتد في نهاية الأمر الى مجرد نقص أو
اختلال في التوازن الهرموني ؛ فهل تقول ان الفارق بين الرجل

والمرأة ، انما هو مجرد فارق كيماوى تتكفل بتفسيره بيولوجيا
الغدد الصماء ؟

٣ - هنا نجد أنه قد يكون من الخطأ أن نظن بأن للوظيفة
التناسلية عند الانسان تلك البسطة الدورية التى نجدها لدى
بعض الحيوانات (كما هو الحال مثلا لدى الحيوانات البرمائية أو
عند فصيلة الفراخ) ؛ بل كما أن اللعاب ليس هو الشهية ، فان
هرمون الذكر ليس هو الرجولة ! والحق أن المنهج الباثولوجى
قد أدى لنا خدمة جلية ، لأنه هو الذى سمح لنا هنا بأن نقف
على البناء الحقيقى الذى تقوم عليه كل الوظائف النفسية لدى
الانسان . وهكذا أصبح فى وسعنا أن نقول ان كل وظيفة
سيكولوجية هى عبارة عن « نظام طبقى » من البناءات
(Hiérarchie de structures) ؛ وهذا القانون يصدق على كل
وظائفنا الغريزية بصفة عامة ، كما يصدق أيضا على غريزتنا
الجنسية بصفة خاصة . وتبعا لذلك فان فى وسعنا أن نقول بأن
الغريزة الجنسية - مثلها فى ذلك كمثل سائر الغرائز الأخرى -
تقوم على « بناء تحتى » بيولوجى ، و « بناء فوقى » اجتماعى ؛
وهى فى هذا انما تستجيب لتلك العملية المعقدة التى تدفعها الى
التسامى بميولها روحيا واجتماعيا .

حقا ان الدراسة الاكلينيكية للكثير من الانحرافات الجنسية
قد دلتنا على أن بعض تلك الحالات الشاذة هى وليدة نقص
فسيولوجى ، ولكن مثل هذه الانحرافات لا تفسر باختلال
التوازن الهرمونى الا استثناء . وأما فى معظم الحالات الباقية ،

فان الانحراف الجنسى يكون فى العادة مقترنا بعوامل أخرى كثيرة مرجعها الى ارتداد أو نكوص (Regression) يطرأ على التطور الجنسى للفرد . ولا نرانا فى حاجة الى الاشارة هنا الى تلك التفرقة الهامة التى أقامها فرويد بين ما هو « جنسى » (Sexuel) وما هو « تناسلى » (Génital) : فقد أصبح من المسلم به اليوم أن للطفل سلوكا جنسيا يسبق ظهور أعراض البلوغ التى تقترن بنمو الغدد التناسلية . ونحن نعرف أن نمو « الجنسية » عند الطفل — وهو ذلك النمو الذى يبدأ منذ السنوات الأولى للطفولة ، والذى يترتب عليه كل سلوك الطفل الجنسى فى المستقبل — يتوقف على تأثيرات اجتماعية هامة ، لعل أولاها بالعناية تأثير الوالدين الذى قد تترتب عليه بعض العقد الوجدانية الخطيرة . واذن فان الحياة الجنسية عند الطفل ليست مجرد صدى لتأثيرات هرمونية ، بل هى منذ البداية مشوبة بعوامل وجدانية هامة . وتلك حقيقة هامة لا بد من أن نعمل لها حسابا كبيرا حينما نكون بصدد دراسة التكوين البيولوجى للمرأة ، حتى لا يقع فى ظننا أن العامل البيولوجى وحده هو المسئول عن مصير المرأة نفسيا واجتماعيا . وسنرى فيما بعد الى أى حد يمكن القول بأن الوظيفة الجنسية انما تمثل فى الحقيقة مركبا متكاملا يتم فيه ضرب من التآزر بين « الغريزة التناسلية » و « الغريزة الجنسية » بمعناها الواسع . والواقع أننا هنا بصدد تكامل توافقى قد يطرأ عليه الانحلال حينما يدب الخلاف بين « البناء التحتى » البيولوجى ، و « البناء الفوقى » الاجتماعى ،

نظراً لأنه بطبيعته تكامل عسير قلما يصمد أمام أعاصير انقلاب الزمان
النفسي !

٤ - ولكن هل يكون معنى هذا أن الفروق البيولوجية لا تقوم
تقوم بأى دور فى حياة المرأة ؟ أم هل يكون معنى هذا الدور
التكوين البيولوجى للأثنى لا يتدخل بأى حال فى تحديد مصير
المرأة ؟ - تلك بطبيعة الحال مزاعم لم تطرأ لنا على : فالتساؤل
لنعرف كيف تلعب المظاهر الجسمية دوراً هاماً فى حياة المرأة ،
ابتداء من عهد الطفولة الذى قد تدرك فيه أنها مختلفاً جسمياً
عن الرجل ، حتى عهد الشيخوخة الذى تصل فيه إلى اليأس ،
بعد أن تكون قد مرت بمراحل البلوغ ، والحيض ، والمenstruation ،
والولادة ، وما إلى ذلك حقا اننا لا نفهم الوقائع البيولوجية
الا فى ضوء سياق وجودى ، اقتصادى ، نفسى ، اجتماعى ،
ولكننا لا ننسى أن تكوين المرأة البيولوجى هو الذى يهيئها منذ
البداية فريسة لصراع نفسى عميق بين اهتمامها بذاتها وخدمتها
لنوع البشرى ، ما دام هو الذى يقضى عليها بأن تكون أداة
النوع فى التكاثر ، ووسيلته الى المحافظة على بقاء أفراد ! وليس
من شك فى أننا مهما حاولنا أن نخفف من حدة التوتر بين
الجنسين ، فانا لن نستطيع أن ننكر بأية حال أن المرأة الى حد
كبير أسيرة للنوع ، حتى أن معظم المتاعب النفسية التى يمر بها
بها لدى الكثير من النساء ، انما هى فى العادة وليدة هذا الصراع
الكامن لدى المرأة بين « الفرد » و « النوع » . وبينها والكاد
الرجل يحيا لنفسه ، دون أن يجد ذاته مأخوذة فى جبال « النوع » ،

فرى المرأة أسيرة لتلك انقوة « الغاشمة » التى تنخر فى صميم ذاتها ، ألا وهى قوة « النوع »^١ . ولعل هذا هو ما حدا بالانجليز الى تسمية « الدورة الشهرية » للمرأة باسم « اللعنة » (The Curse) فانها لفى الحقيقة عبودية تستكين لها المرأة ، متحملة ما كتب لها أن تتحمله فى سبيل خدمة نوعها البشرى !

بل اننا لو استقصينا كل حياة المرأة النفسية — كما سنرى بوضوح فيما بعد — لوجدنا أن « المازوشية » (Masochisme)^٢ تلعب دورا كبيرا فى معظم مراحل تطورها ، وذلك بحكم تكوينها البيولوجى نفسه . حقا ان العنصر المازوشى يسير جنبا الى جنب مع العنصر النرجسى (Narcissisme)^٣ (كما لاحظت بوضوح الكاتبة القديرة والمحللة النفسية الممتازة هيلين دويتش فى كتابها الضخم عن « سيكولوجية النساء ») : لأن الحياة النفسية للمرأة تقوم على ضرب من الانسجام أو التوازن بين « حب النفس » و « ايذاء النفس » ؛ ولكن من الواجب أن نلاحظ أنه اذا كان للألم على الخصوص فى حياة المرأة سحر كبير لا نكاد نجد له نظيرا عند الرجل ، فذلك لأن حياتها البيولوجية تفرض عليها الكثير من المتاعب والآلام والتضحيات . وبعبارة أخرى

Cf. Simone de Beauvoir. “Le Deuxième Sexe” Vol. (١)

I. (Les faits et les Mythes) ; Gallimard, Paris, 29e éd., 1949, PP. 64 — 69.

(٢) « المازوشية » هى التلذذ مع ايلام الذات ، وعكسها « السادية » (Sadisme) ، وهى التلذذ من ايلام الغير .

(٣) « النرجسية » هى العشق الذاتى ، نسبة الى نرجس الشاب اليونانى الجميل الذى كان يتملى جماله على صفحة غدير رائق صاف .

يمكننا أن نقول أنه لما كان من الضروري للمرأة أن تتحمل الألم
وتقبل التضحية ، بحكم وظيفتها التناسلية ، فقد تكفلت الطبيعة
بتزويدها بسلاح قوى من « المازوشية » حتى تستطيع بذلك أن
تكيف مع الواقع . ولما كانت هناك أخطار كثيرة تهدد حياة
المرأة منذ البداية حتى النهاية ، باعتبارها خادمة للنوع ، فقد كان
لا بد لها من أن توحد بين مازوشيتها الأثوية وقلقها الانساني
وتبعاً لذلك فقد وجدت المرأة نفسها مضطرة الى أن توفق
بشكل ما من الأشكال بين اهتمامها الفردي بالحصول على
اللذة ، واهتمام النوع من خلالها بتحقيق مآربه حتى ولو
ترتب على ذلك القدر الكثير من الألم بالنسبة لها . ومثل
هذا التوافق لا يمكن أن يتم الا اذا اكتسب الألم المقترن
بالعملية الجنسية والوظيفة التناسلية طابع اللذة . والواقع أن
استعداد المرأة السيكولوجي للوظيفتين الجنسية والتناسلية
لا بد من أن يقترن بالكثير من الأفكار المازوشية . ولعل هذا
هو السبب في أن فكرة الجماع لا بد من أن تقترن في نظر
المرأة بعملية فض البكارة ، وهذه بدورها تقترن بفكرة
الاعتداء عليها ونفاذ عضو الذكر الى صميم جهازها التناسلي .
حقاً ان الكثير من تهيؤات الطفولة وأخايل المراهقة قد تزيد
من الآلام النفسية والمخاوف السيكولوجية المقترنة بعملية
الجماع ، ولكن من المؤكد أن « فض البكارة » : (Défloration)
عملية أليمة حقاً ، لما يترتب عليها من تحطيم جزء من جسم
الفتاة . وحينما تقبل المرأة هذا الألم المقترن باللذة ، أو تلك

اللذة المقترنة بالألم ، فقد يتم الاقتران في نظرها بين العنصرين ، حتى لتكاد اللذة الجنسية عندها تصبح متوقعة على الألم . وهذا ما حدا ببعض علماء النفس الى القول بأن الحياة الجنسية للمرأة لا بد من أن تكتسب طابعا مازوشيا . والواقع أن هذا القدر من « المازوشية » هو مرحلة ضرورية لتهيئة الفتاة واعدادها ، حتى تستطيع فيما بعد أن تتوافق مع وظائفها الجنسية ؛ ولكن من الواضح أنه اذا زادت تلك المازوشية عن الحد ، فانها قد تنقلب الى انحراف مرضى تتولد عنه الكثير من الأمراض النفسية .

وربما كان الأصل في هذا الارتباط الوثيق بين الألم واللذة في حياة المرأة ، يرجع الى وظيفتها التناسلية . وليس من شك في أن عملية الحمل والولادة تقترن منذ البداية في حياة المرأة بالكثير من النوازع المازوشية . وقد تنحرف هذه المازوشية عن سبيلها السوى ، فتطغى آلام الحمل والولادة ، ومتاعب الوضع والأمومة ، على سرور الأم بوليدها نفسه . وهكذا تكتسب كل الوظيفة التناسلية لدى المرأة طابعا مازوشيا مَرَضِيَا . ولكن مهما يكن من شيء ، فان المازوشية تلعب دورا كبيرا في حياة المرأة الجنسية والتناسلية معا : لأنها من جهة تقترن منذ البداية بعقدة الخشاء ، والخوف من الحيض ، وعملية فض البكارة ، كما تقترن من جهة أخرى بآلام الحمل والوضع والولادة والأمومة . واذا كان من شأن هذه المازوشية أن تعين المرأة على التوافق مع الواقع بتقبل كل

ما يجيء مع وظيفتها الأثوية من آلام ، فانها اذا زادت عن الحد قد تشير لدى المرأة ضربا من « الدفاع » (*défense*) فتعتمد المرأة الى الفرار من أخطار المازوشية الزائدة بأن تنهرب من وظيفتها وتتنكر لأنوثتها . وسنرى فيما بعد الى اى حد يتوقف مصير المرأة كله على تحقيق ضرب من التوافق الانسجامى أو التكامل التآزرى بين نوازعها النرجسية ونوازعها المازوشية^١ .

بيد أننا نعود فنذكر القارىء بأن « الأنوثة » ليست وليدة التكوين البيولوجى وحده ، بل ربما كان الأدنى الى الصواب أن نقول انها عبارة عن نواة مركزية تتألف من عناصر بيولوجية ، وفسولوجية ، وتشريحية ، وسيكولوجية واذا كان فى وسعنا أن ننظر الى العناصر العضوية - نسيا - باعتبارها عناصر ثابتة ، فاننا سنجد أن العناصر السيكولوجية تختلف باختلاف الأفراد ، وذلك بحسب نوع العمليات الباطنة التى تتحقق لدى المرأة ، ومدى تأثير البيئة على سلوكها ، وطريقتها فى الاستجابة للمؤثرات الاجتماعية .

٥ - أما فيما يتعلق بالضعف الجسمى الذى اعتدنا أن ننسبه الى المرأة ، فان من المؤكد أن تكوين المرأة البيولوجى قد يجعلها فى نظرنا أدنى قوة وأقل صلابة من الرجل . وآية ذلك أن قوة المرأة العضلية أقل من قوة الرجل ، كما أن عدد

H. Deutsch: "The Psychology of Women", Vol. I, (١)
N. Y., Grune, 1944, PP. 276 — 278.

الكريات الحمراء الموجودة لديها أقل مما لدى الرجل ، فضلا عن أن قدرتها على التنفس أضعف ، مما يجعلها أقل قدرة من الرجل على العدو . وإن المرأة لتعجز عن رفع الكثير من الأثقال التي ينهض برفعها الرجل ، كما أنها قد لا تقدر على مواجهة الذكر في المصارعة ، فضلا عن أنه لا تكاد توجد رياضة تستطيع فيها المرأة بحق أن تنافس الرجل . أضف الى ذلك أن المرأة تتصف عموما بعدم الثبات (L'instabilité) ، مما قد يترتب عليه عجزها عن تنفيذ الكثير من المشروعات التي تتجه الى تحقيقها ، نتيجة لعدم قدرتها على ضبط نفسها ومواصلة نشاطها . وهذا ما حدا بالبعض الى القول بأن سيطرة المرأة على العالم الخارجى محدودة ، ما دامت أعجز من أن تحقق مشروعاتها بروح الثبات والصلابة والإستمرار . ومن هنا فقد استقر فى أذهان الكثيرين أن حياة المرأة الفردية أقل خصبا وأدنى ثراء من حياة الرجل .

ولكن هل تكفى هذه المبررات جميعا للقول بأن المرأة تمثل « الجنس الضعيف » ؟ أو بعبارة أخرى : هل يجوز لنا بيولوجيا وفسيولوجيا أن نسم « الأنوثة » بالضعف والنقص والقصور ؟ — اننا لسنا نرمى الى القيام بدفاع متهافت عن المرأة ، ولكننا نرى أنه قد يكون من خطل الرأى أن نخلط بين « القوة » و « الذكورة » ، وبين « الضعف » و « الأنوثة » .

(١) Simone de Beauvoir : " Le Deuxième Sexe " .

Gallimard, 1949, Vol I. P. 72 — 3.

وعلى الرغم من اعترافنا بما فى وظيفة المرأة من « سلبية » (Passivité) ، فاننا نرى مع ذلك أن العلاقة بين الرجل والمرأة ليست مجرد علاقة بين « موجب » و « سالب » . وحتى اذا نظرنا الى الناحية الجنسية الخالصة - وهى تلك الناحية التى تظهر فيها بوضوح « مازوشية » المرأة - فقد نجانب الصواب اذا قلنا ان موقف المرأة موقف سلبى محض . ونحن نبادر فنلفت نظر القارئ الى أن كل تلك التعميمات التى قد نضطر اليها عادة لبيان الفروق الموجودة بين الجنسين ، انما هى فى الحقيقة مجرد تقسيمات تسهل البحث ولكنها قد تضللنا اذا اعتبرناها فروقا عامة على الاطلاق . ولو أننا نظرنا الى الحالات الجنسية باعتبارها تكون سلما له درجات متتالية ، لجاز أن نقول ان تلك الصفات التى تنسبها الى كل من الجنسين ، انما تصح بالنسبة الى الأفراد الذين يشغلون أعلى السلم أو أسفله ، أعنى بالنسبة الى « الرجل الحقيقى » و « المرأة الحقيقية » - وهما نوعان قلما نلتقى بهما - . ولكن هذه الصفات تقل شيئا فشيئا حينما تقترب من الرجل المخنث والمرأة المسترجلة - وهما نوعان لا يكاد يخلو منهما مجتمع من المجتمعات .

٦ - فاذا ما عاودنا النظر الآن فى قضية « الجنس الضعيف » ، تبين لنا أن كثيرا من مظاهر « الضعف » المزعوم تقترب بمظاهر « قوة » تعوضها الى حد كبير . فمن المعروف مثلا أنه اذا تعرضت المرأة لظروف عدوى ، فان احتمال اصابتها بالمرض يكون أقل

من احتمال إصابة الرجل به في نفس الملابسات . وهذا هو السبب في أن نسبة الوفيات بين النساء أقل منها بين الرجال ، على الرغم من الأخطار الكثيرة التي تتعرض لها المرأة عند الحمل والوضع ؛ فضلا عن أن متوسط العمر عند النساء أعلى منه عند الرجال . وقد نطن أن هذه الحقائق إنما ترجع الى بعض ظروف خارجية محضة ، ولكننا لو رجعنا الى الاحصائيات المختلفة ، لوجدنا أن نسبة وفيات الأطفال أكبر بين الأولاد منها بين البنات ، ولو أن الوضع قد يتغير بعد المراهقة بسبب كثرة تعرض الفتيات للأمراض الجسمية والأزمات النفسية . ولكن الملاحظ عموما أنه على الرغم من أن نسبة المواليد من الأولاد أكبر من نسبة المواليد من البنات (١٠٤ ولد لكل ١٠٠ بنت) ، فإن عدد البنات اللائى يقين على قيد الحياة بعد انقضاء السنة الأولى ، أكبر بكثير من عدد الأولاد وهذه الحقيقة ان دلت على شيء ، فانما تدلنا على أن الجنس المؤنث يملك حيوية كبرى ؛ بحيث قد يصح لنا أن نعد جنس المرأة هو «الجنس القوى» اذا أدخلنا في اعتبارنا قدرة النساء عموما على مقاومة المؤثرات الضارة ، واحتمال التعرض للأمراض والأوبئة . ١ وليس من شك في أن قدرة المرأة على احتمال الألم هي أعظم بكثير من قدرة الرجل ، كما يظهر بوضوح من صفة «المازوشية» التى أسهبنا فى الحديث عنها من قبل . ولا تتجلى هذه المقدرة فى تحمل آلام الحمل والوضع وما يترتب عليهما فحسب ، بل هى

(١) الدكتور يوسف مراد : « سيكولوجية الجنس » ، دار المعارف ، سنة ١٩٥٤ - (ارجع على الخصوص الى الفصل الاول ص ١٢ - ٤٣) .

تتجلى أيضا في مناسبات أخرى كثيرة ، خصوصا ابان الحروب .
واذا كان من الحق أن تكوين المرأة البيولوجى هو المسئول عن
هذه المقدرة على احتمال الآلام لخدمة النوع البشرى ، فان من
الثبت أيضا أن هذه المقدرة قد تتجاوز حدود المجال البيولوجى
المحض . وسواء أكانت قدرة المرأة على احتمال الآلام محددة
بيولوجيا أم معنويا ، فان من المؤكد أن هذه القدرة المعنوية على
المقاومة هى حقيقة واقعة . ولا تقتصر هذه القدرة الفائقة على
احتمال الآلام - لدى المرأة - على تلك المتاعب الاضطرابية
التي تفرضها عليها طبيعتها البيولوجية والنفسية ، بل اذا لنجد
لدى النساء أحيانا استعدادا هائلا لقبول الكثير من التضحيات
الارادية . حقا ان بين الرجال من هم قديرون أيضا على أخذ
النفس بالتضحية ، وتحمل ما يجيىء معها من آلام ، فى سبيل
خدمة متلهم الأعلى ؛ ولكن ربما كانت مقدرة النساء فى هذا
المضمار أعظم وأشمل . وحسبنا أن نلقى نظرة سريعة على أعمال
التمريض والرعاية التي تقدم عليها الكثيرات عن طيب خاطر ، لكي
تتحقق من أن « التضحية » عند المرأة لا تقتصر على أبنائها الذين
تربطهم بها رابطة الدم .

واذا كان الناس قد دأبوا على الحديث عن ضعف النساء
جسمانيا (وهو ضعف لا شك أن له فعلا أسسه البيولوجية فى
تركيب المرأة عضويا) ، فاننا قد لانعدم بين الشعوب الزراعية ،
ولدى الأجناس البدائية ، ان لم نقل فى بعض المجتمعات الحديثة
نفسها ، نساء ممتازات يستطعن القيام بالكثير من الأعمال

العضلية العنيفة . ولا يجب أن يفوتنا أن الكثير من الأعسال
الجسمية التي تنهض بأدائها المرأة - كالتمريض المستمر مثلا -
تتطلب الكثير من الجهود ، وهي لا تختلف عن باقى الأعمال
الشاقة التي يقوم بأدائها الرجل من حيث كمية الطاقة اللازمة
للقيام بها ، بل من حيث نوع النشاط المبذول نفسه . فضلا عن
ذلك ، فقد يحق لنا أن تتساءل عما اذا كان هذا الضعف الجسمي
(النسبي) الذي نلاحظه لدى المرأة هو وليد تكوينها البيولوجي
وحده أو ما اذا كانت عوامل أخرى تربوية واجتماعية قد عملت
على زيادته وتقوية مظاهره . وعلى كل حال ، فقد أثبت التجارب
أنه حتى اذا لم يكن في مقدور المرأة أن تنافس الرجل في مضمار
الرياضة البدنية ، فإن اقبالها على ممارسة الكثير من الألعاب
الرياضية قد ساهم الى حد كبير في تقوية بنيتها الجسمية ، حتى
لقد أصبحنا نجد بين النساء كثيرا من « الرياضيات » الممتازات ،
خصوصا في مجال السباحة وتسلق الجبال والتزحلق على الجليد
وما الى ذلك ... ولو أننا رجعنا الى التاريخ ، لتبين لنا أن نساء
اليونان كثيرا ما استطعن أن يتغلبن على الرجال ، كما لا نعدم
نظيرا لهذه الظاهرة أيضا بين بعض نساء ألمانيا ، خصوصا ابان
القتال ، حينما كانت المحاربات ينافسن الرجال في ميدان الصراع ؛
وأما حيث يظل نشاط المرأة مقيدا محصورا ، فإن مثل هذه المقدرة
الجسمية لا بد من أن تكون أضعف وأقل ، كما هو المشاهد مثلا
لدى نساء الشرق عامة ١

R. allers : "Psychology of Character." London, (١)
Sheed, 1939, pp. 232 - 233.

٧ - وهناك حجج أخرى كثيرة تثار ضد المرأة في معرض اثبات ضعفها والتدليل على نقصها ؛ وفي مقدمتها الحجة القائدة على القول بنقص قوة المرأة العقلية . ويذهب أنصار هذه الحجة الى حد بعيد في التدليل على قصور المرأة فكريا ، فيقولون ان المرأة ذاتها تؤمن في قرارة نفسها بأنها دون الرجل ، بدليل أن النساء قلما يقبلن عن طيب خاطر على استشارة محامية أو طبيبة !^١ وهنا يضطرننا الانصاف الى أن نقول انه لما كان عدد النساء المشتغلات فعلا بالدراسة العلمية أو البحث الجدى لازال ضئيلا بالقياس الى عدد الرجال ، فان من الطبيعي أن يكون انتاج المرأة أقل من انتاج الرجل ، خصوصا في مضمار الفتوح العلمية والاختراعات الحديثة . هذا الى أن « الكشف العلى » لا يتوقف على المقدرة العقلية والمجهود الذهنى فحسب ، بل هو يفترض أيضا ضربا هائلا من الثقة بالنفس ، والثقة بالمجتمع الذى نعيش فيه . ولكن هذه الثقة لا زالت تعوز المرأة ، لأن النساء قد نشأن في مجتمعات دأبت على الاقلال من شأنهن والانتقاص من مقدراتهن . وليس من شك فى أنه حينما يقدم المرء على عمل كائنا ما كان ، وهو معتقد فى قرارة نفسه بأنه ليس أهلا له ، فان النتيجة التى سينتهى اليها لا بد أن تجبىء مؤيدة لانعدام ثقته فى نفسه ! ولكن السنوات الأخيرة قد شهدت فى مجال الانتاج العلمى والأدبى ، نتيجة لازدياد ثقة المرأة فى نفسها ، الكثير من

(١) Ef. Richard Curle : "Women : An analytical Study"

Watts, 1947, PP. 50 — 58,³ PP. 186 — 193.

المؤلفات العلمية والفلسفية والأدبية المكتوبة بأقلام نسائه
ممتازة ! وهكذا أصبحنا نسمع عن نساء كثيرات استطعن أن
يظفرن بالكثير من الجوائز الأدبية والعلمية ، كما لم نعدم في مجال
الفلسفة نفسه مفكرات ممتازات .

ولو أننا رجعنا الى نتائج الامتحانات المدرسية ، لوجدنا أن
الفتيات كثيرا ما يتقدمن على الفتيان في مجال التحصيل العلمى ،
وقد لاحظ بعض علماء النفس أن الفتيات اللاتي يظهرن أكبر
مقدرة عقلية في مضمار الدراسة ، هن في العادة فتيات قد نشأن
في أوساط عائلية تقف فيها المرأة على قدم المساواة مع الرجل ،
أو تعمل جنبا الى جنب مع زوجها . ولا ريب أن مثل هذا الجو
النفسى هو أكثر الأجواء مناسبة لنمو ثقة الفتاة بنفسها وإيمانها
بقدرتها العقلية ، مما يترتب عليه اقبالها على الجهد العقلى بقوة
وشجاعة ، وانصرافها الى الدراسة والبحث بهمة ونشاط . وفضلا
عن ذلك ، فإنا قد لا نستطيع أن نعرف على وجه التحديد الى
أى حد يدين أصحاب الأفكار العظيمة لنسائهم بالكثير من آرائهم ؛
ولكن التجربة قد أظهرتنا على أن تأثير المرأة - سواء أكانت
زوجة أم أختا أم صديقة - على الجانب العقلى من حياة الرجل ،
قد لا يدانيه أى تأثير آخر . وانا لنعرف أن كثيرا من عظماء
الرجال قد ناقشوا آرائهم ومشروعاتهم مع أزواجهم ، ولكن
غروهم قد جعلت المرأة سرا مطويا فبقى دور النساء في اختصار
تلك الأفكار نسيا منسيا !

٨ - وليس أدل على تأثير « فقدان الثقة في النفس » لدى

المرأة ، من أنها لم تستطع أن تحرز نجاحا ملحوظا حتى في بعض الميادين التي كانت دائما مفتوحة أمام النساء . وان خصوم المرأة ليتخذون من هذه الحقيقة ذريعة للتدليل على نقص القدرة العقلية لدى النساء ، فيقولون انهن لم ينتجن شيئا مذكورا حتى في مجال الموسيقى والفنون المختلفة التي طالما كان المجال مفتوحا أمامهن لارتيادها . والحق أن انعدام ثقة المرأة في نفسها قد حال بينها وبين الانتاج في شتى الميادين (بما فيها ميدان الفنون نفسه) ؛ ولكنها ما كادت تتحرر من هذا الاسار النفسى ، حتى أخذت تنافس الرجل في شتى ميادين الانتاج الفنى . وفضلا عن ذلك ، فقد لوحظ أن المرأة لا تكثر في كثير من الأحيان بالعسل في ميادين قد لا تتطلب منها قسبًا من النشاط العقلى هي دون مداه ، وانما كل ما هنالك أنها لا تجد من نفسها اهتماما . وربما كان السر في ذلك - فيما يقول هيمانز (Heymans) - يرجع الى أن التفكير المجرد البارد هو أمر قد لا ترتاح اليه المرأة عموما ، نظرا لأنها لا تقنع في العادة الا بما يرضى حاجاتها الوجدانية وطبيعتها العاطفية . ولسنا ندرى الى أي حد يمكن القول بأن « العاطفية » هي من الخصائص الثانوية المميزة للنساء عموما ، ولكن ربما كان من الصواب أن يقال ان وظيفة الأمومة قد اقتضت أن تكون المرأة أكثر حساسية من الرجل ، وأسرع استجابة للمؤثرات الوجدانية . أما القول بأن المرأة لا تنظر الى الحياة الا من خلال عواطفها ووجداناتها ، أو أنها كثيرا ما تهتدى عن طريق شعورها وبصيرتها الى حقائق قد لا يستطيع الرجل أن يهتدى

اليها بعقله وتفكيره المجرد ، فهو في نظرنا قول لا يخلو من مبالغة واسراف ، خصوصا اذا عرفنا أن ملكة « الحدس » (L'Intuition) المزعومة كثيرا ما تجنح بالمرأة الى اصدار أحكام سريعة ليس لها سند من عقل أو عاطفة . وأما اذا أنعمنا النظر فيما دأب الناس على تسميته باسم « العاطفية » المؤنثة ، فقد نجد أنفسنا بازاء « منطق » خاص أملتة على المرأة طبيعة حياتها النفسية ، باعتبارها مخلوقا يتعامل في العادة مع الأفراد والأشخاص ، لامع الأفكار والمبادئ العامة ! فالرجل في الغالب حريص على تطبيق المبدأ العام ، وأما المرأة فانها لا تعرف سوى الحالات الخاصة ! والرجل في العادة - ان طلب اليه أن يصدر حكما - لا يفكر الا في مخالفة القانون باعتبارها واقعة تستلزم الادانة ، بينما المرأة - ان وضعت موضع القضاء - فانها لن تفكر الا في مصير فرد معين ! واذن فان « منطق » النساء لا ينكر الوقائع - كما يحلو للبعض أن يقول - وانما هو منطق يهتم بالأشخاص أكثر مما يهتم بالوقائع !^١

ولكننا مانكاد تنساق في بيان هذه الفروق السيكلوجية بين الرجل والمرأة ، حتى نتذكر أننا قد تجاوزنا بكثير حدود العهد الذي قطعناه على أنفسنا ! فقد كان كل غرضنا من دراسة الفروق البيولوجية بين الجنسين أن نمهد لدراسة التطور السيكلوجي للمرأة منذ طفولتها المبكرة الى نهاية سن اليأس . ولكن هذه

Cf. R. Allers: "The Psychology of Character" 1939, (١)
PP. 239 — 241.

المقدمة البيولوجية لم تلبث أن انتقلت بنا الى تعميمات
سيكولوجية نحن أحرص ما نكون على تجنبها ! وربما كان السر
في هذا الانتقال المفاجيء من المجال البيولوجى الى المجال
السيكولوجى هو أن التكوين البيولوجى للمرأة لم يكن يوما
هو المسئول الأوحده عن ذلك المصير الذى انتهت اليه ! واذن
فليس يكفى لتفسير سلوك المرأة أن نحلل جهازها العضوى ،
أو أن نفسر علاقتها بمختلف وظائفها العضوية ، أو أن نقول انها
دائما فى خدمة النوع ، وانما يجب أن نستفيد من دراستنا
لبيولوجية المرأة ، دون أن نجعل من التركيب البيولوجى لجسم
المرأة « مصيرا » جامدا يرين عليها ، وكأن الطبيعة وحدها هى
التي تتكفل بتفسير كل مظاهر السلوك الأنثوى !

الفصل الثاني

البنت في دور الطفولة

٩ - اذا حاولنا أن نستقرئ تاريخ المجتمعات ، فأننا سنجد أن مركز « البنت » في الأسرة هو منذ البداية مركز ضعيف ، مشوب بالكثير من « الدونية » (Infériorité) فنحن نعرف مثلا كيف كان وأد البنات عند العرب في الجاهلية نظاما اجتماعيا متبعا : اذ كانت تحفر بجانب الموضع الذي اختير لولادة الأم حفرة عميقة ، فاذا ظهر أن المولود أنثى ، قذف بها حيه عقب ولادتها مباشرة في هذه الحفرة ، وهيل على جسمها التراب ؛ بل لقد كان بعضهم يلجأ الى وأد بناته في أمكنة خاصة بعيدة عن المنازل حتى لا يدنسها بجثثهن ورفاتهن ! وسواء أكانت أسباب هذا النظام ترجع الى الاملاق وعدم القدرة على تربيته الأولاد ، أم كانت ترجع الى مبالغة بعض العشائر العربية في الحرص على صيانة أعراضها واثقاء ما يحتمل أن يصيبها عكروه ، أم كانت ترجع الى دافع ديني بحث على اعتبار أن البنات رجس من خلق الشيطان أو من خلق اله غير آلهتهم ، وأن مخلوقا هذا

شأنه ينبغي التخلص منه ^١ ، فإن من المؤكد أن نظاما كهذا إنما يصدر عن شعور اجتماعي عام بحقارة شأن المرأة ووضاعة مركزها الاجتماعي وسوء مصيرها في الحياة . وعلى الرغم من أن وأد البنات قد اقترن عند العرب بيداوة الجاهلية ، فإنا قد لا نعدم له نظيرا لدى بعض الجماعات الأخرى التي لا يخلو نظامها الاجتماعي من حضارة . وقد كان اليهودي - كما ورد في التلمود - يستهل صلاته إلى الله قائلا : « أحمدك يا الهى لأنك خلقتنى يهوديا - لا وثنيا ، ذكرا - لا أنثى - » ! ولا زال وأد البنات سنة متبعة في الكثير من المجتمعات ، ولو أننا هنا بصدد « وأد أدبى » نلقى فيه بالأنثى إلى « حفرة » النقص والوضاعة وحقارة الشأن !

وان الأسرة - حتى في أيامنا هذه - لترحب بمقدم الولد ، خصوصا إذا كان أول وليد لها ، بينما تلقى البنت شيئا غير قليل من سوء الترحيب أو عدم الاكتراث أو الشعور بخيبة الأمل ! ومثل هذا الموقف ، من جانب الأسرة ، قد يعلّل بأسباب كثيرة : فإن الوالدين قد ينتظران الوريث الشرعى ، أو هما قد يشعران بأن « الولد » أقدر من البنت على تخليد اسم العائلة ، أو هما قد يضيقان ذرعا بتلك الابنة التي سيكون عليها أن تشق طريقها بصعوبة في مجتمع معقد لم تستقر فيه الأوضاع الاجتماعية ، أو هما قد يعلنان علم اليقين بأن الولد أقدر من البنت على مساعدة

(١) « وأد البنات عند العرب في الجاهلية » ، للدكتور على عبد الواحد وافي ، مجلة الرسالة ، العدد ٤٠٠ ، ٣ مارس سنة ١٩٤١ ، ص ٢٦٤ - ٢٦٧ .

أهله ومواصلة حرفة أبيه .. الى آخر تلك الأسباب الاجتماعية والاقتصادية المعروفة. وقد تتفهم مثل هذه الأسباب في المجتمعات الحديثة التي استطاعت المرأة فيها أن تظهر بقدر من المساواة مع الرجل ، ولكن ثمة عوامل خفية لا شعورية تظل تعمل عملها في صميم تلك المجتمعات . وآية ذلك أن الأم نفسها قد تكون قد وطلت نفسها على استقبال مولود ذكر ، فاذا بها تفاجأ بأنثى هى أبعد ما تكون عن الترحيب بمقدمها ! وقد نطن أن هذا « الجو النفسى » الذى تلقاه البنت لأول مرة ، سرعان ما يزول فتمحى كل آثاره ، ولكن الواقع أنه كثيرا ما تعلق آثاره بنفس الأم ، فلا تلبث الطفلة الصغيرة أن تشعر بأنها تحيا فى جو عائلى غير مستحب . وقد ذهب بعض علماء التحليل النفسى الى أن موقف الطفل أو الطفلة من الأم هو الى حد كبير وليد طريقتها فى معاملته أو معاملتها ، لأن لدى الطفل أو الطفلة حساسية مرهفة نحو الأم ، حتى ابان الأشهر الأولى للرضاعة . وليس من شك فى أن نشأة البنت فى جو تشعر فيه بأنها موجود غير مرغوب فيه ، سرعان ما تتجلى آثارها بوضوح فى كل مظاهر سلوكها ، خصوصا اذا كان مركز الأم فى الأسرة مركزا ضعيفا لا تحسد عليه !

١٠ - حقا ان مركز « البنت » فى العائلة مرتبط الى حد كبير بظروف أخرى كثيرة ، فان من المهم أن نعرف ما اذا كان لها اخوة ذكور عديدون ، أو ما اذا كان لها أخ واحد ، أم ما اذا كانت واحدة بين أخوات عديدات ؛ ولكن الملاحظ عموما أن

شعور البنت بنقصها قد لا يرتبط بشخصها ، بل قد يمتد الى « الجنس » الذى تنتسب اليه بصفة عامة . وقد تبدل البنت الصغيرة جهدا كبيرا فى سبيل تصحيح وضعها فى نطاق الاسرة ، أو فى سبيل تعديل مركزها بين اخوتها وأخواتها ، دون أن تنجح فى الظفر بتقدير والديها ، فلا تلبث أن تتحقق - شعوريا أو لا شعوريا - من أن الذنب ليس ذنبها هى ، وإنما هو ذنب « الجنس الضعيف » الذى تنتمى اليه ! وقد ينمو هذا الشعور لدى البنت فى سن مبكرة جدا ، حتى قبل أن تفتن الى وجود أية فروق بيولوجية بينها وبين الولد . وليس أخطر على الحياة النفسية للبنت من أن تكون وحيدة بين اخوة كثيرين ، أو أن تكون واحدة بين أخوات كثيرات ليس لهن سوى أخ واحد . ولا يخفف من حدة هذا الوضع سوى أن تكون البنت هى الأخت الكبرى التى يعترف لها بحق الولاية على الآخرين ، أو أن تكون هى الأخت الصغرى التى تنعم بتدليل الوالدين ! وكما أن البنت الوحيدة التى تحيا فى أسرة ليس فيها سوى أولاد قد تنزع الى اتخاذ طابع مذكر ، فإن الولد الوحيد الذى يحيا فى أسرة ليس فيها سوى بنات قد يميل الى اتخاذ طابع مؤنث . ولما كان الأطفال جميعا يشعرون فى طفولتهم المبكرة بالحاجة الى الالتصاق بالأم والاستمتاع بعطفها وحنانها وتدليلها ، فإن أول تجربة نفسية يصطدم بها الطفل فى هذه المرحلة هى تجربة الفطام النفسى . وهنا قد يبدو مركز « الولد » أضعف من مركز « البنت » ، اذ لا يلبث الوالدان أن يضنا عليه بالقبلات

والملاطفات ومظاهر التدنيل المختلفة التى تظهر بها أخته ،
بدعوى أنه « رجل » ، وأن الرجل لا يقبل ولا يدل ، ولا
يجب أن ينظر الى المرأة ، ولا يجب أن يبكى ، ولا يجب أن
يتزين ... الخ . أما البنت فانها قد لا تشعر بتأثير صدمة
« الفطام النفسى » ، اذ تستمر الأم فى تقييلها وتدليلها ،
ويواصل الأب عطفه وحنانه عليها ، فلا تكاد تشعر بالوحدة ،
ولا تكاد مخاوف « الانفصال » ترقى الى عقلها الصغير !
وحينما يفزع الولد الصغير لهذا « الاستقلال » الذى يفرضه
عليه والداه ، فقد يتمنى أن يكون بنتا ، أو قد يأبى أن يرتدى
سروال الرجال ، أو قد يصر على الاحتفاظ بشعره الطويل !
وحينما يقوى عناد الطفل واستمساكه بالأنوثة ، فقد يصر على
أن يتبول كما تتبول البنات ، أو قد يعمد الى تقليد أخواته
فى كل شىء . ولكن الوالدين سرعان ما يتكفلان باقناع الولد
الصغير بتفوقه وامتيازه ، بدعوى أنه قد جعل حياة جدية
تفرض عليه الكثير من التكاليف ، وتلك هى حياة « الرجولة »
التي لا بد له من أن يفخر بها ويعمل على الوصول اليها . وهنا
قد يتخذ معنى « الرجولة » (La Virilité) صورة مجسمة ،
فيرتبط هذا المفهوم المجرد بعضو ملموس هو « لقضيب » .
ولسنا نظن أن الولد يهتدى تلقائيا الى أهمية هذا العضو
الصغير باعتباره مظهر رجولته وموضع افتخاره ، وإنما نحن
نميل الى الاعتقاد بأن البيئة التي ينشأ فيها الطفل هى التي
تتكفل ببث هذا الشعور فيه . والظاهر أن الأمهات والمربيات

هن اللائى يخلطن منذ البداية أمام الولد بين عضو الذكر
وفكرة الذكورة ، فلا يلبث الطفل الصغير أن ينظر الى قضيبه
باعتباره صميم شخصيته أو باعتباره ذلك « الآخر » (L'autre)
الذى تتجسد فيه كل رجولته ! وقد روى أحد الآباء أن طفله
الصغير كان قد اعتاد التبول جالسا ، فلما قاده أبوه الى دورة
المياه وأراه كيف يتبول الرجال واقفين ، أصبح هذا الولد
الصغير يحتقر البنات اللائى يتبولن دائما جالسات !. ومهما يكن
من شىء ، فان شعور الولد بالتفوق على البنت لامتلاكه
القضيب ليس شعورا تلقائيا ، وانما هو وليد رغبة الوالدين
والمربين فى تعويضه عن ذلك الشعور الأليم بالفطام النفسى ،
وهو الشعور الذى قد يجعله يحسد البنت على امتيازها !

١١ - بيد أن امتياز البنت على الولد لن يلبث أن يتقهقر ،
حينما تأخذ البنت فى الشعور باختلافها عن الولد ، نظرا لعدم
توفر « انقضيب » لديها . وهنا تتساءل : « هل تشعر البنت
حقا بأنها دون الولد » ؟ و « هل يرجع هذا الشعور - كما
يقول فرويد - الى ادراكها لوجود نقص فى تركيبها الحسمانى
أو الى رغبتها الحادة فى امتلاك قضيب كالولد ؟ » يبدو لنا
أن النظرية التى تجعل من « اشتهاى القضيب » الأساس الذى
يقوم عليه كل سلوك المرأة هى نظرية بعيدة كل البعد عن
الصواب . وحتى اذا لم نسلم بأن كثيرا من الفتيات بجهلن
تركيب جهاز الزجل حتى سن متقدمة ، فاننا نلاحظ فى العادة
أن كثيرا من البنات الصغيرات ينظرن الى تلك القطعة الصغيرة

من اللحم التي تتدلى بين فخذي الولد على أنها شيء تافه ضئيل الشأن . وحينما تكتشف البنت وجود عضو الذكر لدى أخيها الصغير أو لدى وليد حديث ، فإنها قد لا تعلق على هذا الاكتشاف أهمية كبرى ، اللهم الا في مرحلة متأخرة . وقد يحدث أحيانا أن تنظر البنت الى « القضيب » على أنه ظاهرة شاذة ، فلا ترى فيه سوى زائدة صغيرة تثير في نفسها الاشمئزاز والتقرز ! أما اذا أظهرت البنت - في بعض الحالات - اهتماما كبيرا بعضو الذكورة لدى أخ أو رفيق ، فإن هذا الاهتمام قد لا ينطوي على أى شعور بالغيرة الجنسية ، وهو قد لا يسبب لديها أى شعور حاد بالنقص ، بسبب عدم امتلاكها لمثل هذا العضو ، وانما كل ما هنالك أن البنت قد تعرب عن رغبتها في امتلاك هذا العضو ، كما ترغب عادة في امتلاك أى شيء آخر يقع عليه نظرها ، وكثيرا ما تبقى تلك الرغبة مجرد رغبة سطحية ١ .

والظاهر أن فرويد حينما ذهب الى القول بأن حرمان البنت من القضيب يولد لديها الكثير من الاضطرابات النفسية ، فانه ينسى أن عقلية الطفل ليست منطقية بالقدر الذي يتصوره . وليس أدل على ذلك من أن الطفلة الصغيرة قد ترى عضو التناسل لدى أخيها فتبادر الى القول بأنها أيضا كانت تملك

شيئا كهذا ، أو أنه سيكون لديها مثله ، أو أنها تملك بالفعل
شيئا كهذا ، مما يدلنا على أن الوجود والعدم عند الطفل ليسا
بضدين ! وحسبنا أن تلقى نظرة على رسوم الأطفال حتى
تتحقق من أنهم لا يرون بالفعل ما هو واقعي ، وإنما هم
يصدرون في أعمالهم عن «نماذج» سابقة قد اختلقوها اختلاقا !
ولعل من هذا القبيل مثلا ما رواه أحد الباحثين من أن بنتا
صغيرة لم تتجاوز الرابعة من عمرها ، كانت تحاول دائما أن
تبول كالأولاد ، معربة في الوقت نفسه عن رغبتها في امتلاك
« شيء طويل يمكن أن يسيل منه البول » ! فنحن هنا بازاء
حالة تؤكد فيها البنت امتلاكها لقضيب وعدم امتلاكها له ،
وهو نمط من التفكير يتفق مع ما أطلق عليه بياجيه اسم التفكير
بالمشاركة . وقد يقع في ظن الطفلة أن الأطفال جميعا يولدون
مزودين بقضيب ، ولكن الآباء فيما بعد هم الذين يتأصلون
هذا العضو من بعض أطفالهم حتى يجعلوا منهم بنات ! ومثل
هذا الظن إنما يصدر عن نزعة الطفل المعروفة نحو تأليه والديه ،
وجعلهم المسؤولين عن كل ما يمتلك ! فالطفلة اذن لا ترى في
« الخشاء » أو « البتر » منذ البداية ضربا من العقوبة ، أو
مظهرا من مظاهر الحرمان ، وإنما الملاحظ أنه لكي يتخذ حرمانها
من القضيب طابع العقوبة ، فلا بد من أن تكون الطفلة - من
ذى قبل - غير راضية عن موقفها . وهذا ما عبر عنه العالم
النفسى جونز بقوله : « ان رؤية قضيب الولد ليست هي
الحدث الخطير الأوحده الذي يغير من حياة البنت ويسبب نها

اضطرابا نفسيا ، وانما هي الحلقة الأخيرة من سلسلة طويلة متواصلة الحلقات . « ١

والواقع أن حدثا خارجيا كرؤية قضيب الولد لا يمكن مطلقا أن يكون هو وحده المسئول عن حدوث صدمة نفسية للبنت ، أو عن اصابتها باضطرابات باطنية خطيرة ، وانما يجب أن نعد هذا الحدث بمثابة عامل ثانوي مساعد . وقد يكون من الخطأ أن نخلط بين التبرير العقلي للصدمة النفسية ، وبين هذه الصدمة نفسها : فان الأصل في الصدمة ليس مجرد حدث خارجي ، بل هو وجود اضطرابات باطنية سابقة . أجل ان رؤية القضيب قد تتسبب أحيانا في حدوث بعض اضطرابات نفسية خطيرة لدى الفتاة ، ولكن بشرط أن تكون هناك تجارب نفسية سابقة هي التي تتكفل بخلق مثل هذا الموقف . ومعنى هذا أن اكتشاف البنت للاختلاف التشريحي الموجود بينها وبين الولد ان هو الا مجرد تأييد وتثبيت لنقص سبق لها أن استشعرته ، وبالتالي فهو مجرد تبرير عقلي لهذا النقص ، على حد تعبير المحللة النفسية المشهورة هيلين دويتش^٢ .

وحيثما يقوم لدى البنت شعور واضح بعجزها عن اشباع رغباتها في التلذذ الذاتي أو في الكشف عن جسمها ، أو حينما

E. Jones : "Parers on Psycho-analysis" London, (١) Baillire, 1938, P. 615.

H. Deutsch : "Psychology of Women." Vol. I. 1944, (٢) P. 236 — 237.

يقف والداها عقبة أمامها في سبيل تحقيق عاداتها السرية ، أو
حينما تشعر بأنها ليست محبوبة من والديها كباقي اخوتها ،
فانها قد « تسقط » على عضو الذكر كل سخطها واستيائها .
واذن فان « القضيب » في ذاته لا يحمل كل هذه المعانى التى
نسبها اليه ، وانما الأدنى الى الصواب أن نقول مع « ادلر »
ان الأحكام التقويمية التى يصدرها الآباء والمجتمع هى التى
تخلع على الولد ذلك الامتياز الذى يصبح القضيب فيما بعد
مجرد رمز له ، فتفسر به الفتاة ما ينسبه الناس من تفوق الى
الولد بالقياس اليها . والواقع أن الفتاة اذ ترى المجتمع يؤثر
أخاها عليها ، واذا ترى أخاها نفسه يتيه عجا برجولته ، فانها
لا بد من أن تشعر بالغيرة نحوه ، وبالتالي فانها قد تستسلم
للشعور بالدونية . وقد يحدث فى بعض الأحيان أن تشعر
البنت بحقد شديد وضغينة هائلة نحو أمها أو نحو أبيها (فى
حالات نادرة) ، أو هى قد تتهم نفسها بأنها المسئولة عن
تشويه جسدها ، أو هى قد تلتمس العزاء فى الظن بأن القضيب
كامن فى صميم جسمها وأنه لا بد أن يظهر فى يوم ما من الأيام !
ومهما يكن من شئ ، فان من المؤكد أن عدم توافر القضيب
لدى الفتاة سيلعب دورا هاما فى حياتها النفسية ، حتى اذا
لم تكن تشتهيه فى هذه المرحلة المبكرة من مراحل تطورها .
وربما كانت الميزة الكبرى التى يستمدّها الولد من امتلاكه
للقضيب هى أنه بامتلاكه لعضو خارجى يمكنه الإمساك به ،
فانه يستطيع - على الأقل - أن يجد موضوعا يتجسد فيه

ويستحيل اليه . ومعنى هذا أن الطفل يقوم بعملية « اسقاط » ،
يصبح فيها القضيب هو الشيء الخارجى الذى يرمز اليه ويعبر
عنه ؛ ولو أنه لهذا السبب عينه سرعان ما يشعر بأنه مهدد فى
صميم هذا العضو الخارجى ، مما يترتب عليه خوفه من « البتر »
أو « الاخصاء » . وأما البنت فانها تشعر بأنها لا تملك عضوا
خاصا ، وكأن ليس لديها جهاز تناسلى ؛ وهذا الشعور نفسه
قد يولد لديها الكثير من المخاوف الباطنة ، اذ يخيل اليها أن
الحياة تعمل فى باطنها ، وعملها خفى لا سبيل الى معرفته أو
استجلاء كنهه ! وسرى فيما بعد الى أى حد تلعب تلك المخاوف
الباطنية لدى المرأة دورا هاما فى صميم حياتها النفسية .

١٢ - بيد أن « القضيب » لا يرتبط فى ذهن الطفلة بأى
معنى جنسى ، وانما الملاحظ أن اهتمام البنت بعضو الذكر
لا يكاد يتجاوز وظيفته البولية . وحينما ترى الفتاة أخاها
الصغير وهو يتبول واقفا ، فانها قد تحاول أن تقلده ، أو قد
تشتهى أن تملك عضوا تستطيع أن تمسك به وأن تقذف بالبول
من خلاله على شكل نافورة أو مجرى عال متدفق ! بيد أنها
سرعان ما تتحقق من أن عضوها باطنى ، وأنها لا تملك الامساك
به أو التصرف فيه ، فلا تلبث أن تضيق ذرعا بهذا الوضع
الخاص الذى يلزمها بأن تتبول بشكل معين قد يكون أقل
سهولة وملاءمة من طريقة الولد فى التبول . ولعل هذا هو
السبب فى أن كثيرا من البنات قد يحاولن تقليد الأولاد فى
التبول ، خصوصا فى الأرياف حيث يحلو للقرويات الصغيرات

أحيانا أن يتبولن واقفات ! ويذهب بعض علماء النفس الى ان هذا هو الأصل في ولع الكثير من النساء بسقى حداثتهن ، اذ أن الإمساك بخرطوم الماء قد يعيد الى لاشعورهن فكرة الإمساك بالقضيب والقذف بالبول الى مسافات بعيدة . ولعل من هذا القبيل مثلا ما يرويه «هاقلوك اليس» عن احدى المريضات من أنها كانت تتهيج لأقل صوت يصدر عن نافورة ، فان صوت المياه المتدفقة كان يذكرها دائما بالصوت الذى كان يحدثه أخوها وغيره من الأطفال أثناء تبولهم ! والظاهر أن معظم تجربة الفتيات الصغيرات المتعلقة بالقضيب انما ترتبط بوظيفته البولية ، خصوصا وأن البنات سرعان ما يدركن قلة مقدرتهن على ضبط أجهزتهن البولية ، بعكس الولد الذى يستطيع الى حد كبير أن يتحكم فى ضبط جهازه البولى . هذا الى أن عضو التبول لدى الولد عضو خارجى سهل عرضه ، بينما يستحيل على البنت أن تستكشف عضوها البولى أو أن تقوم بعرضه ! وكل هذه الاعتبارات قد تجعل للقضيب أهمية خاصة فى نظر الطفلة ، باعتبارها أداة طيعة يتحكم فيها الولد كيفما شاء . ولكننا نعود فنقول ان الملابس الخاصة هى التى تعمل على زيادة اهتمام الطفلة بعضو الذكر ، وأما فى الحالات العادية فان الامتياز الذى يتمتع به الولد من حيث طريقته فى التبول قد يبقى أمرا ثانويا لا يتسبب عنه تولد أى شعور بالنقص لدى البنت .

وتذهب بعض الباحثات - مثل سيمون دى بوقوار - الى

أن الطفلة قد تجد في « الدمية » (أو « العروسة » كما تقول بالعامية) تعويضا عن « القضيبي ». والواقع أن « القضيبي » هو اللعبة الطبيعية للولد ، لأنه يجد فيه تلك « الذات الأخرى » (Alter ego) التي يتجسد فيها ويسقط شخصيته عليها ، فليس بدعا أن نرى الوالدين والمربين يضعون بين يدي الفتاة « دمية » تقوم بهذا الدور ، فتعوضها عن تلك اللعبة الطبيعية التي حابت الطبيعة بها أخاها الصغير ! والفارق بين « القضيبي » و « الدمية » هو أن الأول يمتاز بالفاعلية والاستقلال الذاتي ، بينما لا تكاد الدمية تعدو مجرد شيء « سلبي » يمثل جسم الإنسان في جملة دون أن يتصف بأدنى قدرة ذاتية ! وهنا قد تدخل اعتبارات الجمال والتزين وعرض النفس في حياة الطفلة السيكولوجية فتشعر الفتاة بأنها لا تكاد تختلف عن دميتهما الصغيرة التي تدللها وتقبلها وتسقط ذاتها عليها . وعندئذ قد تشرع في النظر الى نفسها في المرآة ، أو قد تحاول أن تنتزع اعجاب الآخرين ، أو قد تعتمد الى ادماج شخصيتها في شخصية تلك « العروسة » الصغيرة التي وضعها الكبار بين يديها !

بيد أنه قد يكون من الخطأ أن نظن - كما وقع في ظن بعض الباحثين - أن البالغين هم المسؤولون عن اهتمام الفتاة بالدمية ، على اعتبار أنها مجرد « تعويض » يقدمونه لها حتى لا تنصرف الى الاهتمام بالقضيبي ! وحسبنا أن ننظر الى ألعاب البنات في سن متقدمة جدا ، حتى نتحقق من أنها بطبيعتها مختلفة عن ألعاب الأولاد : إذ بينما نجد أن نشاط الأولاد في العادة يتجه نحو

« الخارج » ، فتراهم يقومون بحركات مختلفة يهتمون فيها ببناء أشياء ثم لا يلبثون أن يعملوا على تقويضها وإعادة بنائها ، نجد أن نشاط البنات في العادة يتجه نحو « الداخل » ، فتعتمد البنت الى وضع أشياء داخل البيت الذي ابتنته لنفسها ، وتهتم باحكام غلق أبوابه ، حتى تضمن صيانة ما به من أشياء في عناية وحرص . واذن فان ألعاب « الفتاة » تتميز منذ البداية بطابع خاص يؤهلها لوظيفة « الأمومة » التي ستنهض بها في المستقبل ، ألا وهو طابع « بناء العش » ، والاهتمام بترتيب الأشياء ، والعمل على صيانتها والمحافظة عليها . وسنرى فيما بعد الى أى حد تلعب فكرة « الباطن » أو « الداخل » أهمية كبرى في حياة المرأة ، باعتبارها مخلوقا تحفل حياته بالأحداث الباطنة والتغيرات الداخلية العميقة ١ .

١٣ - ولما كان معظم نشاط البنت منذ الطفولة المبكرة متجها بطبيعته نحو « الداخل » ، فليس بدعا أن تظهر أمارات « النرجسية » على الفتاة الصغيرة التي لم تكد تتجاوز الرابعة أو الخامسة من عمرها . وهنا قد تشعر البنت بحاجتها الى التزين ، واكتساب اعجاب الآخرين ، وعرض نفسها على الآخرين باعتبارها « موضوعا للحب » . وربما كانت ماريا بشكرتشف (Marie Bashkirtseff) (صاحبة تلك المذكرات الخاصة المشهورة) هي خير مثال للفتاة في هذه المرحلة ، فانا لنجد لديها نزعة « نرجسية »

Cf. H. Deutsch: « The Psychology of Women. », (١)
vol. I., 1944. p. 282.

واضحة ، حتى ان البعض ليزعم أن غريزة الأنوثة قد تجلت لدى تلك الفتاة منذ طفولتها المبكرة . وهنا تختلف الآراء حول « نرجسية » البنت ، فيزعم البعض أنها وليدة تكوينها البيولوجي ، بينما يؤكد البعض الآخر أنها ثمرة للتربية الاجتماعية ولسنا ندري ما الذي يمنع من أن تكون هذه الصفة المميزة للبنت وليدة كل من العاملين معا ، فان من الواضح أن المربين لا يمكن أن يفرضوا على الفتاة اتجاهها سيكولوجيا يتعارض تعارضا جوهريا مع طبيعة تكوينها البيولوجي . ولسنا نزعم بذلك أن « السلبية » المطلقة هي الصفة الأصلية التي تفرضها على المرأة طبيعة تكوينها البيولوجي ، وانما نحن نرى أن هذه السلبية وان كانت نسبية الا أنها داخلية في صميم تكوين المرأة البيولوجي والنفسى باعتبارها مخلوقا يتجه معظم نشاطه نحو « الداخل » . ومهما يكن من شيء ، فان من المؤكد أن للتربية والبيئة تأثيرا كبيرا على حياة الطفلة في هذه المرحلة ، اذ بينما نجد أن المجتمع سرعان ما يضطر الصبي الى تجاوز مرحلة « النرجسية » (التي هي وليدة الفطام النفسى الذى سبق أن تحدثنا عنه) ، نراه يقر الفتاة على مسلكها النرجسى ، ويدفعها الى اتخاذ « السلبية » قاعدة عامة لكل سلوكها . وهنا نجد الولد يتجه نحو العالم الخارجى ، فيتشاجر مع رفاقه ، ويتنافس معهم فى الكثير من الألعاب العنيفة ، ويعمد الى تسلق الأشجار ، ويشرع فى احتقار الفتيات ، بينما يرفض المربون أن يسمحوا للبنت بالاتجاه نحو الألعاب العنيفة ، ويأبون عليها أن تتسلق الأشجار أو أن تتصارع

مع النسيان ، أو أن تسلك مسلك الأولاد بصفة عامة . وعلى الرغم من أن البنت قد تجد لذة كبرى في أن تشترك مع الأولاد في ألعابهم ، نظرا لما لديها من نزعة مازوشية قد تجعلها تستعذب ضرباتهم ومظاهر احتقارهم ، فإن المربين مع ذلك كثيرا ما يحاولون بينها وبين أشباع هذه النزعة الأثوية الطبيعية . واذن فقد يكون من الخطأ أن تنكر على البنت كل نشاط « ايجابي » ، ولكن ربما كان من الخطأ أيضا أن نخلط بين « فاعلية » الولد و « فاعلية » البنت . والحق أن الفتاة لا تميل الى مشاركة الفتيان في ألعابهم ، مع ما يستتبع ذلك من تحمل للكثير من الآلام والضربات ومظاهر العنف المختلفة ، لمجرد رغبتها في القيام بنشاط ايجابي ؛ وإنما الملاحظ أن ميلها الى النشاط الايجابي لا يكاد يفصل عن نزعتها المازوشية . وعلى كل حال ، فإن المجتمع سرعان ما يلزم الفتاة بالتخلي عن كل نشاط ايجابي ، لكي يجعل منها مجرد « موضوع » يحكم عليه الآخرون ، ويسر برؤيته الأغيار . وهنا قد تلعب الأمهات دورا هاما في قمع كل نشاط ايجابي تبديه الفتاة ، اذ أن المرأة تريد أن تجعل من ابنتها مجرد صورة مصغرة لها ، ومن ثم فإنها سرعان ما تشعرها بأن مصيرها رهن بأنوثتها ، وأنوثتها إنما تقتضي التخلي عن النشاط والجرأة والعمل العدواني . وليس عجبا أن يختلف مسلك الأم حيال ابنتها عن مسلكها حيال ابنتها ، فإن احترامها لرجولته هو الذي يعلو عليها ضرورة التخلي عن الحد من حرите ، بينما تراها تحاول جاهدة أن تدمج ابنتها في نطاق « العالم الأنثوي » الذي جعلت له ! والواقع أن الابن

سرعان ما يقطع صلته بأمه (بوجه ما من الوجوه) ، بينما تظل البنت مرتبطة بأمها ، ويقوى اهتمام الأم بتكوين ابنتها النسوى ، فنراها تحاول تلقينها واجبات المرأة ، كما قد تعتمد الى تعليمها القيام بمهام البيت والتدبير المنزلى ، حتى لتكاد البنت تصبح فى نظرها أما صغيرة ، أو امرأة مبتدئة هى فى دور التكوين !^١

يبد أنه قد يحدث أن يكون الأب هو المشرف الحقيقى على تربية البنت ، أو قد تكون البيئة التى تحيا فيها البنت بيئة مذكرة ليس فيها سوى أولاد ، أو قد تكون البنت بحكم تكوينها الطبيعى ذات ميول عدوانية ، فنراها عندئذ تنكر لأنوثتها ، وتنزع بالفعل الى منافسة الأولاد والتفوق عليهم ، محاولة أن تثبت للمجتمع الذى تعيش فيه أنها ليست دون الأولاد الذين ينسب اليهم السبق والأولوية . وليس من الضرورى أن يكون هذا المسلك من جانب الفتاة وليد « عقدة ذكورة » (Masculinity Complex) ، بل قد يكون مجرد تعبير عن رغبتها الدفينة فى التنكر لتلك الدعوى التى يجابهها بها المجتمع حينما يخلط بين « الضعف » و « الأنوثة » . وقد تساهم فى تنمية هذه الرغبة لدى الفتاة عوامل أخرى مساعدة ، كأن يكون أهلها قد اعتادوا أن يدلنوها باطلاق اسم ولد عليها ، أو كأن يكونوا قد دأبوا على معاملتها معاملة الأولاد (سواء فى الملبس أم فى المظهر العام) ،

Cf. Simone de Beauvoir : «Le Deuxième Sexe», (١) vol. II., Ch. I., pp. 26—28.

مما قد تترتب عليه أحيانا نتائج نفسية خطيرة في حياتها المستقبلية .
حقا ان الفتاة « المسترجلة » قد لا تتخلى عن أنوثتها ، بل هى
قد تعتمد أحيانا الى اتخاذ « الاغراء » أداة عدوان ، بحيث أن
الفتاة لتبدو في هذه الحالة أقرب ما تكون الى « غانية » صغيرة
تتقاذفها نوازع الأنوثة بما فيها من اغراء وتبرج ، ونوازع الرجولة
بما فيها من عدوان وتحد . وحينما يستشرى هذا الداء فى نفس
الفتاة ، فقد تقع فى المستقبل فريسة للكثير من العقد النفسية ،
مما قد ينحدر بها أحيانا الى هوة الدعارة . ولسنا هنا بمعرض
الحديث عن « عقدة الذكورة » ، ولكن حسبنا أن نقول ان
الصراع النفسى العميق الذى قد يثور فى نفس الفتاة الصغيرة ،
حينما تجد نفسها حائرة بين أنوثتها الضعيفة ورغبتها الحادة فى
اتخاذ سبيل العدوان المرتبط فى ذهنها بمعانى « الرجولة » ، نقول
ان مثل هذا الصراع قد أودى بحياة عدد غير قليل من النساء ،
كما يظهر بوضوح من وجود عاهرات مسترجلات سقطن تحت
تأثير « عقدة الذكورة » .

١٤ - أما فى الحالات العادية ، فان البنت سرعان ماتتحقق من
أن المجتمع الذى تعيش فيه هو مجتمع « رجال » ، وأن المرأة لا
تحتل فيه سوى مركز ثانوى . حقا ان سلطة الأم قد تبدو لها
بادىء ذى بدء سلطة كبيرة تجعل منها سيدة البيت والحاكمة
المتسلطة على أمر الأسرة ، ولكنها لا تلبث أن تتحقق من أن دور
الأم فى المجتمع لا يدانى بحال دور الأب ، وأن الرجال هم
القوامون على نسائهم وأطفالهم . فاذا أضفنا الى ذلك أن معاملة

الرجل لزوجته قد تكون سيئة ، أو أنه قد يعتدى عليها بالضرب
أمام أبنائها ، أو أنه قد لا يكف عن توجيه النقد اللاذع لها في
حضرة أولادها ، أمكننا أن نفهم لماذا يسوء مركز « المرأة » في
عين الطفلة الصغيرة التي له تقس عليها بعد تكاليف الزواج
والأمومة ! وقد يحدث أحيانا أن تكون الأم نفسها ساخطة على
مصيرها باعتبارها زوجة وأما ، فراها تحذر ابنتها من الزواج
والأطفال ، وتنصحها بعدم الانسياق لكلمات الرجل المعسولة !
ومثل هذا التصرف من جانب الأم قد يحدث في وقت لا تزال فيه
البنت طفلة لا تفهم ولا تعي ، ولكن من المؤكد أن تأثير هذه
النصائح قد يبقى عالقا بلاشعور البنت الى أن تجتاز بنفسها
مرحلة الزواج وأنجاب الأولاد . فاذا عرفنا أن وظيفة المرأة
الجنسية قد تصور للفتاة فيما بعد على أنها « تضحية » يجب أن
تقبلها لارضاء الرجل ، واذا أضفنا الى ذلك أن عمليات الحمل
والوضع وتربية الأولاد قد تمثل لها باعتبارها تبعات جسيمة لا
تنطوي على أية لذة أو متعة ، أمكننا أن نفهم لماذا تتخذ الكثيرات
بازاء مصيرهن مسلك التمرد ، شعوريا كان أم لاشعوريا —
وكيف لا تثور الفتاة على « جنسها الضعيف » وهي ترى أن
الرجال هم الذين يحكمون العالم ، وأن أبطال التاريخ والروايات
كلهم رجال ، وأن الأمهات يقبعن في البيوت مستلمات

Cf. R. Allers : « Psychology of Character. », (1)
1939, Ch. V., pp. 225—226.

صاغرات ؟ بل كيف ترتضى بعد اليوم أن تتقمص شخصية أمها ،
وهى ترى أن مجتمع « النساء » مجتمع ضعيف لا سند له من
بطولة أو قوة ؟ !

« ان آلهة الرجل - على حد تعبير سيمون دى بوقوار -
كائنون فى سماء بعيدة ، حتى لكأن ليس له فى الحقيقة من آلهة ،
وأما بالنسبة الى الفتاة الصغيرة ، فان الآلهة ذوو وجوه بشرية ،
وهى تحيا معهم تحت سماء واحدة ! » . فالبنت ترى فى الرجال
« آلهة » ، لأنها تشعر بأن مقاليد الأمور فى أيديهم ، ومن ثم
فانها لا تلبث أن تخلط بين « الرجل » و « الرجولة » ، حتى
ليستحيل « الرجل » فى نظرها الى رمز للقوة والبطولة . أليس
هناك جان دارك واحدة أمام مئات الأبطال من الرجال ، مثل
هرقل وأخيل وداود والاسكندر وناپوليون ؟ أليس الدين نفسه
فى يد طائفة من « الرجال » ؟ أليس الأنبياء والرسل والمصلحون
جميعا « رجالا » حملوا الأمانة وأدوا الرسالة ؟ بل ألسنا نلاحظ
أن المتصوفات أنفسهن يخلطن بين لغة التصوف ولغة الحب
فيتصورن أن علاقتهن بالله هى علاقة المحب بمحبوبه ؟ فكيف
نعجب اذن اذا رأينا الفتاة الصغيرة تغفر جبهتها على مذبح الرجال ،
وكأنها تتعبد لذلك « الجنس القوى » الذى كتب عليها أن تحيا
له وتستمد منه أسباب وجودها ؟ ! ثم هناك الأساطير والروايات :
وهذه أناشيد سحرية نملأ بها أسماع الفتيات ، فندعوهن الى
الاستسلام لمصيرهن ؛ ونيس فى مصير المرأة سوى الصبر
والانتظار والعذاب ! وقد نلتقى بفتيات صغيرات لا تكاد

الواحدة منهن تتجاوز الثامنة من عمرها ، فنجد لديهن ادراكا عجيبا لوظيفة المرأة باعتبارها مطلوبة لا طالبة ، معشوقة لا عاشقة ! ولا شك أن هذا الادراك يختلف بحسب طبيعة المجتمعات ، ولكن الملاحظ عموما أن الأقاصيص الشعبية والأغاني المشهورة حافلة بمثل هذه المعاني ، وهى مما يعلق بذاكرة الفتاة الصغيرة فى سن مبكرة جدا^(١) .

ولعل هذا هو السبب فى أن البنت قد تهتم فى هذه المرحلة بهندامها ومظهرها ، حتى ليكاد « التجميل » أن يصبح عندها وسواسا حقيقيا يلزمها ويرين عليها ! حقا ان هذا الاهتمام بالتزين والتجميل قد لا يحمل أى معنى جنسى ، ولكن من المؤكد أن الفتاة حينما تحرص على جمالها وحسن روائها ، فانها انما تضع نفسها موضع تلك الشخصيات الخيالية التى ذقت مرارة الحب فى انتظار « الأمير العاشق » ! وهنا قد تلعب « المازوشية » دورا هاما فى حياة الطفلة ، اذ ترتبط فى ذهنها معانى الحب والعذاب ، فتحاول أن تتضمن دور « الشهيدة » أو « المضطهدة » ، وتعتمد الى الربط بين طفولتها القلقة ومصير المرأة المجروحة المعذبة الصاغرة المستسلمة ! وقد تتخيل الفتاة فى سن التاسعة أو العاشرة أنها قد بلغت سن الحب ، فتحاول خفية أن تضع شيئا من المساحيق على وجهها ، أو تعتمد الى وضع بعض اللقائف فى

(١) قد يكون من الطريف أن يقوم باحث بدراسة تأثير « الأقاصيص الشعبية » على عقلية الفتيات فى مجتمعنا المصرى مثلا .

أعلى ثوبها حتى تبدو ناهدا ، مريدا من وراء ذلك أن تنكر في
زى امرأة ! وهنا قد تتدخل « الأم » بسلطانها ، بغية أن تقف
الفتاة عند حدها ، فلا تلبث الفتاة أن تتمرد على أمها ، وقد
تتزايد حدة ذلك التمرد ، حتى لتكاد الفتاة تضمر العداء لأمها ،
آملة ألا تكون يوما شبيهة بها ! وهكذا نجد أن الفتاة لا تلبث
أن تتجد باعجابها وتقديرها نحو نساء أخريات ، فتراها تظهر نوعا
من العبادة نحو طائفة من النساء اللاتي استطعن التهرب من
العبودية النسوية ، وفي مقدمة هؤلاء بعض المشلات والمدرسات
والكاتبات . وفي هذه الفترة من فترات حياتها ، تميل الفتاة الى
الدراسة ، وتقبل على الاطلاع ، وتحاول التفوق على أقرانها .
وقد تختار صديقة تفضي اليها بأسرارها ، وتتبادل معها المعلومات
الجنسية . وكثيرا ما يزداد شعور البنات في هذه المرحلة بما يبتغين
وبين الأولاد من تنافس ، فتراهن يؤلفن جبهة متحدة تبادلهن
ازدراء بازدراء ، وعداء بعداء ! ومع ذلك فقد تشعر الفتاة بعجب
شديد اذا عاملها الفتى على قدم المساواة ، كما أنها قد تحاول
الظفر باستحسانه واعجابه . وسواء أكانت الفتاة راضية عن
مركزها في الأسرة أم غير راضية ، فإن الرغبة في أن تصبح ولدا
كثيرا ماتراودها ، كما تظهرنا على ذلك الاستفتاءات المختلفة التي
قام بها الباحثون .

وقد قام كاتب هذه السطور بإجراء « استخبار » على بعض
تلميذات المدارس المصرية والسودانية البالغات من العشر ما بين
الثامنة والثانية عشرة ، وجه فيه اليهن السؤال التالي : « هل

ترغبين في أن تصبحي ولدا ؟ ولماذا ؟ » ، فكانت نسبة عدد البنات اللائئى يرغبن في تغيير جنسهن حوالى ٧٨٪ . وقد تنوعت أسباب التفضيل لدى البنات ، فكانت اجابة الصغيرات منهن منحصرة في القول بأن ألعاب الأولاد أكثر تشويقا من ألعاب البنات ، أو أن ملابس الأولاد أكثر ملاءمة للجسم من ملابس النساء ، أو أن حرية الأولاد أكبر من حرية البنات . وأما الكبيرات منهن فقد أبدين أسبابا أخرى للتفضيل ، منها قولهن ان الرجال لا يتألمن كالنساء ، أو ان مستقبل الرجل أفضل من مستقبل المرأة ، أو ان الرجال أقدر من النساء على العمل ... الخ . وقد وردت بين الاجابات المختلفة أسباب أخرى متفرقة منها قول احدهن « اننى أفضل أن أشابه والدى » ، وقول أخرى : « اننى أريد أن أخيف البنات ! » ... الخ . وهذا الاستخبار ان دل على شيء ، فانما يدل على أن عددا كبيرا من الفتيات - حتى في هذه السن المبكرة - يشعرن بسوء مركز « المرأة » ، ويرغبن في التنازل عن « أنوثتهن » . أما اذا قمنا بعمل استخبار عكسى ، فسنرى بوضوح - كما يظهر من الاحصائيات التى قام بها هاقلوك اليس - أن واحدا فقط بين مائة ولد ، هو الذى يرغب في أن يصبح فتاة !

١٥ - فاذا ما اتقلنا الآن من مرحلة الطفولة بمعناها الصحيح الى المرحلة السابقة على البلوغ (Prepuberty) ، ألفينا أنفسنا بازاء مرحلة جديدة ذات أهمية كبرى في حياة الفتاة ، ألا وهى مرحلة انتهاء « الكمون الجنسى » . وليس من السهل

بطبيعة الحال أن تقيم حداً فاصلاً بين مرحلة الطفولة ومرحلة ما قبل البلوغ ، ولكن ربما كان في استطاعتنا أن نحصر هذه المرحلة فيما بين السنة العاشرة والسنة الثانية عشرة من عمر الفتاة . وإذا كان لهذه المرحلة دور هام في حياة الطفلة ، فذلك لأنها تمثل آخر حلقة من حلقات « الكمون الجنسي » ، وبالتالي فإنها حقبة التحرر من نوازع الجنسية الطفلية . حقا ان البعض قد يربط كل مشاكل الفتاة النفسية بمرحلة البلوغ التي فيها يظهر الحيض (Menstruation) ، ولكن ربما كان من الخطأ أن تقيم ضرباً من « التوازي » بين الأحداث العضوية والأحداث النفسية في حياة الانسان بصفة عامة ، والمرأة بصفة خاصة . وآية ذلك أن هنالك فتيات يظهر لديهن الحيض قبل بلوغهن مرحلة المراهقة النفسية ، بينما توجد فتيات أخريات يصلن الى مرحلة المراهقة النفسية قبل أن تظهر لديهن أعراض البلوغ الفسيولوجي . وعلى كل حال ، فإن من المؤكد أن لمرحلة « ما قبل البلوغ » أهمية كبرى في حياة الفتاة الجنسية والنفسية معا ، لأنها قد تمر خلالها بأحداث وتجارب تترك أثرها في كل حياتها النفسية المقبلة .

وإذا كان فرويد قد ذهب الى أن ما يميز بلوغ الفتاة مرحلة « الأنوثة » هو تزايد شعورها فجأة بالسلبية (Passivity) ، فقد يكون في وسعنا أن نقول ان ما يميز الفتاة في هذه المرحلة السابقة على البلوغ هو تعطشها الى الفعل ، وميلها الى النشاط (Activity) . وهنا قد يتشابه الأولاد والبنات ، فإن

مرحلة « الكمون الجنسي » عند الأولاد تقترب دائما بتزايد النشاط ، ولكن نشاط البنات مختلف في هذه المرحلة عن نشاط الأولاد ، اذ لا نجد لديهن أى نزوع عدوانى ، بل نلاحظ أن كل نشاطهن منصرف الى « التكيف مع الواقع » . والحق أن الفتاة لا تلبث أن تجد نفسها في مأزق حرج : لأنها في حيرة بين طفولة الماضى وشباب المستقبل ، بين روابط الطفولة الوجدانية وتبعات البلوغ والاستقلال الذاتى . وهكذا نجد أن البنت سرعان ما تقوم بحملة مفاجئة ضد البيئة التى تعيش فيها ، متدربة بسلاح « الجهد » وعتاد « النشاط » ، آملة من وراء ذلك أن تظهر باستقلالها الذاتى ، مع محاولتها في الوقت نفسه العثور على موضوعات جديدة للحب والكراهية ، يكون في وسعها أن تعمل على « تقمصها » .

والواقع أن « التقمص » الوجدانى يلعب دورا هاما في حياة الفتاة ابان هذه المرحلة ، لأن الموضوع الذى ستقمصه هو الذى سيفصل الى حد كبير في نمو حياتها النفسية وما سيختلف عليها من أحداث . وهنا قد تتخلى الفتاة عن والديها ، باعتبارهما موضوعين سابقين للتقمص ، لكى تختار بدلا منهما موضوعات أخرى جديدة ، مع اظهار شئ غير قليل من العداء والانتقاد نحوهما ، خصوصا اذا لم يكن قد سبق للطفلة أن انفصلت نفسيا عن شخصية أمها . وكثيرا ما تشرع الفتاة في اتخاذ موقف واقعى صرف نحو العالم الخارجى ، فتراها تتخلى فجأة عن تقديرها الزائد لوالديها ، محاولة في الوقت نفسه أن

تعمل بصرامة وجد على أن تصبح مختلفة في شخصيتها عن والدتها . ولكن الملاحظ مع ذلك أن الفتاة قد تحاول في المدرسة أن تقدم صورة نبيلة عن والديها ، على الرغم من أنها قد لا تكف عن انتقادهما في المنزل . وربما كان السر في هذه الأقاصيص الخيالية التي قد ترويها الفتاة عن نبل والدتها وشهامة أبيها أنها ترغب في « انكار » نزعها الى التقليل من شأنهما وميلها الى السخط عليهما . وعلى كل حال ، فإن الفتاة اذ تتصل من شخصية أمها ، وتتهرب من اشرافها ، فإنها إنما تعبر بذلك عن رغبتها في تجاوز مرحلة الطفولة ومجاراته البالغين في الحرية والاستقلال الذاتي . وقد يحدث أن يتحول كل الحب الذي كانت البنت تكنه لأمها نحو « المدرسة » التي تقوم بتعليمها ، أو نحو « فتاة » أخرى تكبرها في السن ، فتصبح هذه المدرسة أو تلك الفتاة الكبيرة بمثابة « المثل الأعلى » الذي يجسم للبنت كل ما تصبو اليه . وليس من شك في أن تقمص البنت لشخصية فتاة تكبرها في السن ، هو مما قد تترتب عليه بعض الآثار النفسية السيئة ، اذ قد تدفعها هذه الفتاة الكبيرة الى الاتيان بأفعال لم تهيأ لها بعد سيكولوجيا .

١٦ - وهناك خصائص أخرى تميز الفتيات في هذه المرحلة السابقة على البلوغ ، ومن أهمها « القضاة » وحب الاستطلاع ، اذ تشعر الفتاة برغبة شديدة في معرفة الواقع والتأثير عليه ، ومثل هذه الرغبة قد تدفعها الى التدخل في شئون الغير ، والعمل على تفسير كل شيء وتأويل كل ما يدور

حولها ، مع السعى في الوقت نفسه الى القيام بدور ايجابي
قد يتخذ صورة المساعدة أو المشاغبة . وفضلا عن ذلك ، فإن
طابع « السرية » سرعان ما ينضاف الى حب الاستطلاع ، فنجد
الفتاة تحيط نفسها بهالة من الغموض ، مع ميلها الشديد الى
تعرف أحوال الآخرين والوقوف على أسرارهم في الوقت
نفسه . ومثل هذه الحاجة الى اخفاء « الأسرار » قد تقتضى من
الفتاة أن تصطفى رفيقة تؤلف معها جبهة صغيرة يكون غرضها
التأر من البالغين ، والقصاص من الأم (أو بديلتها) بصفة
خاصة . واذا كانت الفتاة كثيرا ما تريد أن تثار لنفسها من
والدتها ، فذلك لشعورها بأن أمها قد أخفت عنها الكثير من
الحقائق ابان الطفولة ، خصوصا ما يتعلق بمسائل الحمل
والوضع وولادة طفل جديد . وهذه الحاجة الى اخفاء الأسرار
قد تتخذ صورة عجيبة ، فنجد الفتاة تقضى بسرها الى رفيقة
طالبة منها كتمان الأمر عن باقى الزميلات ، لكى لا تلبث أن
تنهى بالنبا الى أخرى مستحلفة اياها ألا تذيعه بين الأخريات ،
وهلم جرا ! وقد تتولد عن هذه الحاجة نزعة منحرفة تميل معها
الفتاة الى خلق الأسرار واختراع الأنباء ، حينما تعز الأحداث ،
أو حينما يقفر الواقع ، وتلك نزعة قد تبقى لدى كثير من
البالغيات ، فتجد الواحدة منهن ولوعة بالأسرار ، كلفة
بالأقاصيص ، حتى لتكاد تخلط بين الواقع والخيال ! ولعل
هذا هو السر فيما اشتهر عن النساء من ميل الى الكذب ،
وولع باختلاق الأساطير !

ومن الملاحظ أيضا بان هذه الفترة السابقة على البلوغ أن
اهتمام الفتاة كثيرا ما ينصرف نحو العمليات الفسيولوجية
والتغيرات البيولوجية ، فتراها تهتم بمعرفة وظيفة الأعضاء
التناسلية ، وكيفية تكون الجنين ، وما يتم بداخل الجسم أثناء
الحمل ، وعلى أى نحو تتم عملية الولادة ... الخ . وقد ينصب
حب الاستطلاع لدى الفتاة على معرفة الدور الذى يقوم به
الرجل فى كل هذه العمليات الفسيولوجية ، فسرعان ما تراها
تربط بين آلام المرأة المتعلقة بالحمل والوضع والولادة ، وبين
ذلك « الفعل الوحشى » الذى يقوم به الرجل نحو المرأة !
ولكن على الرغم من اهتمام الفتاة فى هذه المرحلة بالكثير من
المسائل الفسيولوجية ، فانها قلما تبدى أى نشاط جنسى
بالمعنى الصحيح . ولما كان نزوع الفتاة فى الدور السابق على
البلوغ متجها بأكمله نحو العالم الخارجى ، فاننا لا نكاد نجد
لديها أى نشاط انطوائى من نوع العشق الذاتى أو العادات
السرية ، بل ربما كان فى استطاعتنا أن نقول اننا هنا بصدد دور
« انبساطى » محض . وخير دليل على ذلك أن اهتمام الفتاة
بمشاكل الحمل مثلا لا يتعرض فى هذه الفترة لأية صورة من
صور الكبت ، بل كل ما هنالك أن الفتاة قد تجتمع بصديقتها
لكى تضع كل منهما تحت ثوبها مجموعة من الأقمشة واللفائف
حتى تتصور كيف تكون المرأة « الحامل » ! وقد تتعرض الفتاة
فى هذه المرحلة لأخيلة « الدعارة » (Prostituaion) ، ولكنها
لن تتصرف كالمراهقة التى تسلمها مثل هذه الأخيلة للذعر

والخوف والشعور بالاثم ، وانما كل ما هنالك أنها قد تشتراك مع صديقتها في وضع المساحيق على وجهها ، وطلاء أظافرهما بالألوان الصارخة ، وتقمص شخصية « العاهرة » !^١

ولا يفوتنا أن نشير الى أهمية « الصداقة » في هذا الدور ، فان علاقات « ما قبل البلوغ » حينما تتخذ صورة « علاقة سادية - مازوشية » (Sado - masochistic) ، فانها قد تترك آثارا سيئة في الحياة النفسية للفتاة « المازوشية » على وجه الخصوص . وقد لوحظ أن عجز بعض الفتيات عن مواصلة الدراسة ، أو متابعة نشاطهن العادي ، قد يرجع أحيانا الى انشغال الفتاة بعلاقة من هذا القبيل من فتاة « سادية » . ومثل هذه العلاقات التي تجيء عادة مع بؤادر « البلوغ » هي التي ستحدد مصير الفتاة في مرحلة المراهقة . وحينما تنضج إحدى الصديقتين جنسيا قبل أن يكون نمو الأخرى قد اكتمل ، فان الفتاة المتخلفة قد تنزع بحكم الغيرة أو التقمص الوجداني الى مجاراة الأخرى في نشاطها الجنسي الغيرى (Heterosexual) ، دون أن يكون قد تهيأ لها النضج السيكولوجي اللازم . وعندئذ قد تتعرض شخصية الفتاة للاضطراب ، فنراها تستسلم للضعف أو الانحراف أو الجريمة . وربما كانت معظم حالات الدعارة أو الجريمة لدى الفتيات الصغيرات براجعة الى اصابتهن

Cf. H. Deutsch : «The Psychology of Women.», (١)

vol. I., Ch. I., pp. 15—16.

أثناء مرحلة ما قبل البلوغ بتوقف مفاجيء ، مما يترتب عليه انصرافهن عن العلاقات الجنسية المثلية التي لا ضرر فيها ، الى علاقات جنسية غيرية هن لم يؤهلن لها بعد . والواقع أنه اذا كان من الخطر على حياة الفتاة النفسية أن تظل متعلقة بوالديها كما كانت في مرحلة الطفولة ، فإن من الخطر عليها أيضا أن تندفع الى مجازاة البالغات ، دون أن تكون شخصيتها قد نضجت بعد جنسيا وسيكولوجيا .

وهكذا تنتهى الى القول بأن لمرحلة ما قبل البلوغ أهمية كبرى في حياة الفتاة النفسية ، لأن عليها ستتوقف كل الأحداث التي ستمر بها في مرحلة المراهقة . واذا كانت علاقة البنت بالولد في هذه المرحلة هي علاقة « لاجنسية » (Non-Sexual) ، فذلك لأن ما يميز الفتاة هنا هو الرغبة في العمل ، والميل الى النشاط . وحتى اذا وجدت بعض مظاهر النشاط الجنسي لدى الفتيات في مثل هذا الدور ، فإن « حب الاستطلاع » هو الذى يلعب الدور الأكبر في هذه الحالة . وقد تستمر آثار هذه المرحلة في حياة بعض الفتيات ، فتصبح الواحدة منهن أميل الى النشاط والعدوان منها الى الانطواء والسلبية ، أو قد يكون هذا النشاط « الصبباني » مجرد رد فعل تقوم به الذات لحماية نفسها من بؤادر « الأنوثة » ! وعلى كل حال ، فإن الطابع الأساسى الذى يميز الفتاة في هذا الدور هو سعيها الحثيث نحو النمو ، ورغبتها القوية فى الاتصال عن الماضى ، ومحاولتها المستمرة لبلوغ مرحلة التحرر والاستقلال الذاتى .

ولعل هذا هو السبب في أن الفتاة قد تكون طيبة محبوبة في
المدرسة ، بينما هي قد تكون ثائرة متمردة في المنزل ! وربما
كانت كل ثورة البنت على أمها إنما هي وليدة شعورها الضمني
بأن الأم هي أقوى رابطة يمكن أن تربطها بالماضي !

الفصل الثالث

الفتاة في مرحلة المراهقة

١٧ - يميل بعض الباحثين الى تقسيم مرحلة المراهقة لدى الفتاة الى مرحلتين : مرحلة البلوغ التي تبدأ عندها التغيرات الفسيولوجية ، ثم مرحلة المراهقة التي تتكون خلالها الشخصية خصوصا في جوانبها السيكلولوجية . وعلى الرغم من أنه ليس ثمة حد فاصل بين المرحلتين ، فضلا عن أن الظواهر النفسية تسير في العادة جنبا الى جنب مع التغيرات الفسيولوجية ، الا أنه قد يحسن بنا أن نبدأ بدراسة مرحلة البلوغ على حدة ، حتى نقف على طبيعة تلك المرحلة المبكرة من مراحل المراهقة . وهنا نجد أنه بينما كانت البنت في المرحلة السابقة على البلوغ لا تكاد تهتم بجسمها ، ولا تكاد تعنى بهندامها ، نراها في هذه الفترة تنصرف الى العناية بجسمها ، وتكرس الكثير من وقتها وجهدها لتجميل نفسها . وبعد أن كانت الفتاة تستعمل المساحيق والأصباغ حتى تقلد الكبار ، نراها في هذه المرحلة تتخذ من أدوات الزينة سلاحا تشبع به غرورها وحاجتها الى الشعور بأنها جميلة ! وقد تشد

رغبة الفتاة في الحصول على المال اللازم لشراء أثوابها وأصباغها وحليها ، حتى لتلتجىء أحيانا الى طرق غير مشروعة لاقتناء ما يلزمها من حاجيات . وليس من شك في أن العامل البيولوجي هو المسئول عن اهتمام الفتاة كل هذا الاهتمام بشكلها وهندامها ، فان ما يميز المرحلة المبكرة من المراهقة انما هو النضج الجنسي . وقد يقع في ظننا أن تأثير العامل البيولوجي بصفة عامة ، والقوى الهرمونية بصفة خاصة ، لا بد من أن يظهر بطريقة صريحة مباشرة في العوامل السيكولوجية (وهو ما يحدث عادة) ؛ ولكن الملاحظ أن النشاط البيولوجي كثيرا ما يعجز عن السيطرة على الموقف ، بحيث قد لا يتيسر له التحكم في شتى مظاهر التعقيد النفسى ، وبالتالي فانه قد لا يقوى على توجيه عمليات النضج في خط مستقيم واضح يؤدي بها نحو « الأنوثة » المطلوبة وهنا يبدأ اهتمام الفتاة بأعضائها التناسلية ، وهو الاهتمام الذى قد ظل حتى الآن فيما وراء الستار ، فتبدأ معه كل تلك المشاكل الجنسية المرتبطة بالعادات السرية . وقبل أن نشرع في الحديث عن المشكلة الجنسية لدى الفتاة ، ينبغي لنا أن نشير الى أن وظيفة جهاز المرأة التناسلى تختلف بالنسبة الى البنت اختلافا كليا عن وظيفة القضيب بالنسبة الى الولد . وذلك لأن عضو التناسل بالنسبة الى الولد هو جهاز سبق له التعرف عليه ، نظرا لما له عنده من وظيفة مزدوجة . هذا الى أن الولد - بخلاف البنت - يهتم في العادة بنمو عضوه التناسلى في فترة سابقة على اهتمام البنت بعضوها التناسلى ، نظرا لأن قضيبه هو في نظره

موضع افتخاره ، فضلا عن أنه يستطيع بسهولة أن يلمس مظاهر
تطوره وأعراض نضجه الجنسي .
بيد أننا نلاحظ مع ذلك أن اهتمام الفتاة بالمسائل الجنسية قد
يفوق اهتمام الفتى بمثل هذه المسائل . وربما كان السبب في ذلك
هو أن المجتمع والمربين والوالدين يشعرون الفتاة منذ البداية
بأن حياتها وثيقة الصلة بالأسرار الجنسية من حيض وحمل ووضع
وأمومة وتنشئة للصغار ... الخ . وإذا كان الشاب قلما يفكر في
وظيفة الأبوة ، فإن البنت تعرف مقدما أن كل مصيرها رهن
بالزواج والأمومة . وسواء تلقت الفتاة تعليمها الجنسي مبكرا أم
متأخرا ، فإنها لا بد من أن تدرك يوما أن الطفل لا يظهر في بطن
الأم بطريقة سحرية ، وإنما لا بد من أن يتعاون الوالدان على خلقه .
ولكن الفتاة لا تلبث أن تشعر بأزمة نفسية عميقة حينما تعرف
أنه لا بد لتكوين الطفل من نفاذ عامل غريب الى حميم جهازها
العضوى . وقد تقع تحت أنظار الفتيات بطريق الصدفة عبارات
كقول التوراة (في معرض الحديث عن حواء) « انك بالآلام
تحبلين وتلدن » ، فتعمل الفتاة خيالها في تصور تلك الآلام
محاولة أن تتقمص شخصية المرأة التي تلد ! وقد تنوهم بعض
الفتيات أحيانا - حتى في سن متأخرة - أن الجنين يخرج من
« الاست » ، فيكون لهذه التصورات من الأثر على أجهزتهن
العضوية ، ما قد يتسبب عنه « امساك عصبى » . وحتى اذا
أسعد الحظ الفتاة ، وكان في وسعها أن تحظى بالمعلومات
الصحيحة ، فإن مجرد تفكيرها في تمزق غشاء البكارة ، وما قد

يُصحبه من نزيف ، قد يستحيل الى أفكار سوداوية تطاردها ولا
تكاد تكف عن ازعاجها . وقد روت لنا الكاتبة الفرنسية كولت
(Colette) كيف أنها وقعت يوما مغشيا عليها ، عقب قراءتها
لوصف دقيق لعملية ولادة بقلم الروائي الفرنسي المشهور اميل
زولا . هذا الى أن الفتاة قد تتحقق من كذب الوالدين والمربين ،
بخصوص العلاقات الجنسية ، فلا تملك سوى أن تحرّمهم ثقتها ،
وتضن عليهم بأسرارها !

١٨ - وقد يكون الطابع العضوى للحمل والولادة هو الأصل
في اهتمام الفتاة الى أنه لا بد من أن تكون ثمة عملية عضوية
تتم بين الزوجين . وكثيرا ما تتجه عقلية الطفلة نحو الحقيقة ،
حينما تلتقى بكلمة « الدم » ، كأن تقرأ مثلا ان هذا الطفل ذو
« دم » مختلط ، أو كأن يقال لها ان « دماء » الآباء تجري في
عروق الأبناء ... الخ . وقد ترتبط العلاقة بين الأبوين - في نظر
الطفلة - بمسألة التبول ، فتظن أن الرجل يتبول داخل المرأة ،
أو قد تنظر الفتاة الى العملية الجنسية على أنها فعل فاضح او شيء
قذر ! وكثيرا ما يصاب الطفل بخيبة أمل حينما يجد أن الكبار
الذين اعتادوا أن ينهوه عن كل ما هو « قذر » ، هم أنفسهم
الذين لا يتورعون عن اتيان مثل هذه الأفعال « الشاذة »
القدرية ! وقد يحدث أحيانا أن تقع عين الطفل - أو الطفلة -
على حالات اتصال جنسى ، بين أناس يشعر بالاحترام نحوهم ،
ولا يكاد يصدق كيف يقدم الكبار على مثل هذه الأفعال
الجنسية التي لا تقرأها الآداب العامة ! حقا ان التجربة قد دلتنا

على أن الصغار قد يلتقون في حياتهم العادية بمعتوهين أو شواذ أو منحرفين يقدمون بمراى منهم على اتيان مثل هذه الأفعال ، ولكن علم الفتى أو الفتاة بأن هؤلاء « مرضى » منحرفون قد يحد من شدة دهشته لما يقع تحت بصره ! أما أن يلقي الفتى أو الفتاة لدى الآباء أنفسهم ، أو لدى القائمين على تنشئته ورعايته ، أفعالا من هذا القبيل ، فتلك تجربة خطيرة لا بد من أن تبعث في نفسه الخوف الشديد . وهنا قد يصاب الفتى (أو الفتاة) بصدمة نفسية بالغة ، حتى أنه قد لا يصدق كل ما يقال له عن العلاقات الجنسية ، خصوصا فيما يتعلق بوالديه . وقد يزيد من قلق الفتاة تضارب الأقوال المختلفة عن الحياة الجنسية ، وتناقض المعلومات التى تصل اليها عن دور المرأة فى هذه العملية . واذ تجد الفتاة نفسها فى حيرة شديدة ، لأنها لا تعرف ما اذا كانت العلاقة الجنسية (بالنسبة الى المرأة) لازمة أم أليمة ، فانها قد تحاول أن تكمل ما فى معلوماتها من نقص بأن تقرأ خلسة بعض الكتب الطبية ، أو بأن تسأل زميلات المتقدمات فى السن ، أو بأن تتزجج من هنا وهناك (خصوصا من الأفلام والروايات) بعض المعلومات الموهشة . وكل هذا التخطى قد يزيد من غموض المسألة فى نظرها ، خصوصا وأن الوالدين لا زالوا حتى اليوم يترددون فى الاقدام على شرح المسألة الجنسية لأبنائهم بدافع الخجل أو الخوف من « تفتيح آذانهم » ! وقد أسفرت الاستفتاءات العديدة التى قام باجرائها الباحثون عن هذه الحقيقة الهامة ، وهى أن معظم الفتيات يحصلن على معلوماتهن الجنسية خارج

البيت ، من زميلاتهن في الدراسة . وكثيرا ما ترتبط في أذهانهن هذه المعلومات بشعور الخوف والجزع والتقزز . ولا شك أن « التربية الجنسية » قد تؤدي الى القضاء على مثل هذا الشعور ؛ ولكن مهما حاول الآباء والمربون ، فإن « تجربة الحب » هي مما قد تعجز عن صوغه الكلمات ، لأننا هنا - كما تقول سيمون دي بوفوار - بصدد تجربة حياة لا يفهمها الا من يعيشها !

وليس من شك في أن عامل « الصداقة » بين الفتيات كثيرا ما يلعب دورا هاما في معظم أدوار تطورهن الجنسي والنفسى . ولكن اذا كانت هذه الصداقة في المرحلة السابقة على البلوغ لا تكاد تعدو صلات « الجنسية المثلية » (Homosexual) ، نظرا لأن موضوع الحب هنا هو نفس الجنس ، فإن الملاحظ في بداية مرحلة المراهقة المبكرة أن عرى هذه الصداقة قد تنقسم ، فتتجه الفتاة نحو مصادقة فتاة أخرى أو نحو مصادقة حدث يافع ، أو هي قد تعود الى الاعتماد على أمها التي سبق لها أن انفصلت عنها ! ومثل هذه العلاقة قد تحول دون تمام نموها ، أو هي قد تؤخر نضجها النفسى تأخرا تاما . وقد يحدث أحيانا أن تتولد في نفس الفتاة بعض مظاهر القلق أو الحصر النفسى ، على أثر انفصالها عن صديقتها ، دون أن يكون فى وسعها الحصول على أى « تعويض » من جانب أمها . وحينما تحدث القطيعة بين

Cf. Simon de Beauvoir : « Le Deuxième Sexe », (1)

vol. II., p. 53.

الفتاتين ، نتيجة لخيانة من جانب احدهما ، فقد تقع الأخرى
فريسة لعصاب خطير ؛ وفي مثل هذه الحالات قد تترد الفتاة الى
مرحلة الطفولة فتسلك مسلك الأطفال ، وتشعر بحاجتها الى
عطف مربيتها أو حذب أمها ، كما أنها قد تتبول على نفسها ،
وتتلثم في الكلام كالأطفال ، وتنتظر من الآخرين أن يطعموها
... الخ . وكثيرا ما يحدث أن تستمر صداقة الفتاتين ، حتى بعد
ظهور الميول الجنسية « الغيرية » (Heterosexual) لديهما ،
فيتخذ الموقف طابعا « ثلاثيا » اذ تربط الفتاتان بموضوع واحد
للحب ، وتتخذ « الجنسية » لديهما طابعا ثنائيا (Bisexual) .
والواقع أن الفتاة الصغيرة لا تزال تتأرجح في هذه المرحلة بين
الموضوعات « المثلية » والموضوعات « الغيرية » للحب ، مما
يدلنا على أن الاتجاه نحو « الجنسية الغيرية » لا يمكن أن يتم الا
تدرجيا . وكثيرا ما تجد الفتاتان لذة كبرى في أن تشتركا معا
في تجارب جنسية مشتركة ، ولو أنهما سرعان ما تفتنان الى أن
الكثير من التعقيدات قد تتولد عن هذا الموقف الثلاثي . وحينما
تكون احدى الفتاتين أنضج جنسيا من الأخرى فقد تكون
علاقتها بالجنس الآخر أكثر جدية ، بينما تظل صديقتها المتخلفة
جنسيا في موقف سلبي لا يكاد يتجاوز العون الأدبي والمشاركة
الوجدانية . وهذا ما يحدث على الخصوص حينما يكون الطرف
الثالث في هذه العلاقة هو شقيق احدى الفتاتين ، كما يظهر
بوضوح من رواية تولستوى المسماة باسم « الحرب والسلام »

حيث تعمل تتاشا جاهدة في سبيل كسب محبة أخيها يكو لا
لصالح صديقتها سونيا .^١

وقد دلتنا التجربة على أن معظم الفتيات في هذه المرحلة يملن
الى الظن بأن والديهن لم يعودا يحبان أحدهما الآخر ، وأنهما
بالتالى على وشك الانفصال . وهنا قد تميل الفتاة الى التعلق
بأبيها ، ولكن الشعور بالاثم سرعان ما يحفزها الى الانتصار
للأم ، فلا تلبث أن تجد نفسها مضطرة الى ابداء مظاهر الوفاء
نحو والدتها . ولكن الملاحظ عموما أن متاعب الأسرة سرعان ما
تولد في نفس الفتاة الرغبة في التحرر من المنزل ، خصوصا وان
حواجزها الجنسية التي لم يتحدد موضوعها بعد قد تدفعها الى
البحث عن صلات جديدة ، والاندماج في مجتمعات أخرى . فاذا
ما حدث أن تصدى الوالدان لمثل هذا العلاقات ، أو اذا سارضا
للفتاة السماح لها بالخروج مع أصدقائها وصديقاتها ، التجأت
الفتاة الى « الهرب » من المنزل ، ولولا أن هذا « الهرب » قد
لا يتخذ أحيانا طابع المأساة ، اذ ينتهى الأمر بالفتاة الى العودة
الى المنزل ، ومعاودة الحياة السلمية مع والديها . وقلما تؤدي
حواجز الجنسية الغيرية الى القيام بمثل هذا التصرف ، خصوصا
في مرحلة المراهقة المبكرة ، وانما الملاحظ عادة أن التوتر الباطنى
العنيف هو الذى قد يدفع بالفتيات الى القيام بمثل هذه المغامرات

L. Tolstoy: «War and Peace», transl. by Louise (١)
& Aylmer Maude, N-Y., Simon & Schuster. 1942.

الخطيرة . حقا ان الحافز الجنسي قد لا يكون معدوما في مثل هذه
المغامرات ، خصوصا اذا اقترن هرب البنت ببعض الأفعال
الجنسية الغيرية ، ولكن الأصل في المغامرة أنها نشاط يراد به
اظهار الاستقلال الذاتى ، والتعبير عن البلوغ بطريقة حادة .
١٩ - ولو أننا حاولنا أن نستقصى الأسباب التى كثيرا ما
تكمُن وراء الاضطرابات النفسية المشاهدة لدى الفتيات ابان
المرحلة المبكرة من المراهقة ، لوجدنا أن معظم هذه الأسباب انما
ترتد فى نهاية الأمر الى حاجة الفتاة للشعور بالاحترام والتمتع
بالثقة . حقا ان الفتاة فى هذه المرحلة تنزع الى الاستقلال، ولكن
هذه الرغبة كثيرا ما تكون مقترنة بالشعور بالجزع وعدم الاطمئنان .
ولما كانت الفتاة الصغيرة كثيرا ما تكون عاجزة عن ضبط نفسها ،
فضلا عما لديها من شعور بانعدام الطمأنينة النفسية ، فانها قد
تتعرض للكثير من الأخطار الشخصية الجدية ، مما قد يترتب
عليه وقوعها فى مشكلة اجتماعية عسيرة الحل . وربما كانت
الخاصية الرئيسية التى تميز مرحلة المراهقة المبكرة هى القابلية
الشديدة للتهيج النفسى ، مع الرغبة الحادة فى التصريف الحركى،
ولو أن الحوافز الجنسية فى بادىء الأمر قد لا تكون واضحة
صريحة . ولكن الفتاة قد تنساق الى « مغامرة » جنسية ، بدافع
آخر لا يمت الى الاشباع الجنى بأية صلة ، مطمئنة الى انعدام
الرغبة الجنسية لديها ، فسرعان ما تصطدم بأرجاع جدية خطيرة
من قبل العالم الخارجى، وبانتالى فان « المغامرة » البريئة سرعان
ما تنقلب الى « مخاطرة » جنسية وخيمة العواقب . وكثيرا ما

تكون الفتاة هنا هي « المحرصة » الغاوية ، كما قد يحدث أن تكون قد بالغت في اظهار أمارات بلوغها ، بحيث ان الشاب ليخطيء في تقدير سنّها ، دون أن يدري أنّها لا زالت قاصرا . وقد دلتنا التجارب على أن عيار الفتاة قد يفلت من بين يديها ، فلا تلبث التجربة الأولى العارضة أن تولد تجارب أخرى متعاقبة ، لكى ينتهى الأمر بالفتاة الى الشعور بأنه لم تعد لها حيلة ، « ما دام كل شيء قد ضاع الآن » ! ومثل هذه التجربة الفاشلة هي منشأ سائر الجرائم الجنسية لدى الفتيات ، بما فى ذلك الدعارة ، والسفاح ، والاجهاض ، والاصابة بالأمراض التناسلية الخطيرة ، الى غير ذلك من النكبات الاجتماعية الوييلة .

وقد قام المحللون النفسيون بدراسة الكثير من أمثال هذه الحالات ، فأجمعت كلمتهم على أن معظم الانحرافات النفسية التى قد تطرأ على الفتيات فى هذه المرحلة هي وليدة اندفاعهن الى تقليد البالغات ، مع انعدام الشعور الحقيقى بالجنس لديهن ، فلا يكون فى استطاعة آليات الدفاع النفسى أن تقمع الحافز الجنىسى أو أن تقاومه ، نظرا لأنها لا تكون بعد قد تكونت لديهن بالقدر الكافى للقيام بعملية « القمع » . فاذا أضفنا الى ذلك أنه ليس ثمة فتاة لا تولد لديها تجربة « الحيض » ضربا من التوتر التناسلى ، وشيئا من الحاجة الى ممارسة العادة السرية ، أمكننا أن نقول ان الحد الفاصل بين المرحلة المبكرة والمرحلة المتأخرة من المراهقة هو أن الأولى ذات ميول جنسية مزدوجة ، بينما الثانية ذات ميول جنسية غيرية . ولكن أمارات الطفولة قد

تظل ماثلة في كلتا المرحلتين : فتبدو المراهقة المبكرة بمثابة صورة جديدة من صور « دور الطفولة » ، لما فيها من تردد بين موضوعات الحب وبين التعلق بالأب أو بالأم ، بينما تبدو المراهقة المتأخرة - على حد تعبير فرويد - بمثابة صورة جديدة من « الموقف الأوديبى » ، لأن علاقة الفتاة بالشاب في هذه المرحلة لازالت تنطوى على عناصر معقدة من بقايا رابطة الأب . ولكننا نعود فنقرر أن مراحل نمو الفتاة متشابكة متداخلة ، فليس في استطاعتنا أن تفصل بينها فصلا قاطعا حاسما ، بل لابد لنا من أن نتذكر أن عمليات المراهقة المبكرة قد تستمر طوال دور النضج السيكلوجى ، كما أن بعض علاقات الطفولة قد تستمر حتى مرحلة المراهقة المتأخرة . وليس أدل على ذلك من أن بعض العلاقات الجنسية المثلية التى قد تتم خلال مرحلة المراهقة المبكرة ، قد تظل باقية سنوات طوالا ، حتى خلال مرحلة النضج النفسى واكتمال نمو الشخصية . ونحن اذا كنا قد فصلنا بين المرحلتين ، فذلك لأننا أردنا أن نبين أهمية العامل البيولوجى فى المرحلة الأولى ، وأهمية عمليات النضج النفسى التدريجى فى المرحلة الثانية .

٢٠ - فاذا عمدنا الآن الى دراسة مرحلة المراهقة المتأخرة ، تبين لنا بادىء ذى بدء أن هذه المرحلة هى بالنسبة الى الفتى والفتاة على حد سواء ، مرحلة عنيفة مليئة بالأزمات النفسية . بيد أن الملاحظ عادة أن الشاب قد ينجح فى اجتياز هذه المرحلة العاصفة فى سهولة ويسر ، بينما قد تقترن المراهقة لدى الفتاة

بالكثير من المتاعب النفسية والأزمات العصائية . والواقع أن « المراهقة » تتخذ بالنسبة الى الجنسين معنى مختلفا كل الاختلاف : اذ هي لا تؤذن بمستقبل واحد بالنسبة الى الرجل والمرأة . فالمراهقة تعنى بالنسبة الى الفتى الانتقال الى مرحلة « الرجولة » ، ومن ثم فان الشاب سرعان ما يفتخر بنمو شاربه ، ويزهو بتضخم قضيبه ، وكثيرا ما يصبح عضو التناسل لدى الشبان معيار مفاضلة ووسيلة تحد . وأما بالنسبة الى الفتاة ، فان المراهقة لا تعنى سوى الاندماج في زمرة النساء ، وان مجتمعهن لهو بيئة خاملة أجمعت كلمة الناس على أنها أدنى من بيئة الرجال ! وكما أن القضيب يستمد من « السياق الاجتماعي » (Social Context) معظم ماله من قيمة وأفضلية ، فان « الحيض » يستمد أبصا من « السياق الاجتماعي » جانبا غير قليل من مظاهر الضعف واللعنة والدونية ! أليس القضيب هو رمز الرجولة ، والرجولة في نظر المجتمع هي القوة والامتياز والتفوق ؟ اذن فلماذا لا يكون « الحيض » ، وهو رمز الأنوثة ، أمانة الضعف والخضوع وانقص ؟ ان « الأنوثة » لترتبط في ذهن الفتاة بتلك العادة الشهرية الأليمة ، فنراها سرعان ما تنطوي في نظرها على معانى الألم والمرض والموت ! وحينما تجد الفتاة نفسها أسيرة لعادة شهرية تعاني خلالها الكثير من الآلام ، فان فكرة الأنوثة قد تقترن في نظرها بفكرة « الجسم الدامي » ، وفكرة « النزيف الباطني » . وهنا نجد أنفسنا مضطرين الى التوقف قليلا عند هذه الظاهرة البيولوجية الهامة ، حتى نرى الى أي حد يؤثر هذا الحدث

الفسولوجى فى كل سىكولوجية المرأة . والظاهر أن معظم الفتيات يشعرن بالخجل الشديد عند حدوث أول حيض لهن ، حتى ان البعض ليربط بين هذه « التجربة » الأولية الهامة ، وبين سائر الأحداث السيكولوجية التى قد تختلف على شخصية المرأة فيما بعد . وقد لوحظ أثناء المحاكمات النسائية أن المرأة قد تكون أكثر استعدادا لأن تعترف بارتكاب جريمة « سفك دم » ، من أن تقر أمام الملاء بأن الدم الموجود على ملابسها لم يكن سوى « طمث » ! والعجيب أن العاهرات ، أنفسهن قد لا تحمر وجوههن خجلا لشيء ، قدر ما تحمر للاعتراف أمام الرجل بأنهن فى دور العادة الشهرية ! ولسنا ندرى الى أى حد يتخذ الحيض الأول لدى الفتاة طابع « المفاجأة » ، ولكننا نعلم أنه ليس أشق على الأم من أن تفضى الى فتاتها بأسرار هذه العادة الشهرية الأليمة ! وإذا كانت الأم نفسها قد تجتهد فى اخفاء هذه الحقيقة عن ابنتها الصغيرة ، فإن الفتاة المراهقة قد تتساءل عند حدوث أول حيض لديها عن السبب فى اخفاء أمها لمثل هذه الحقيقة عنها ، كما أنها قد لا تفهم السر فى تستر أمها وعملها على اخفاء معالم دورتها الشهرية . وحينما تكون للفتاة أخت كبرى ، فقد تنكفل هى أحيانا بشرح الأمر لها ، أو قد تستطلع الفتاة حقيقة هذه الظاهرة من زميلات البالغات فى المدرسة ، أو قد تحدث لها الدورة الشهرية للمرة الأولى دون أن يكون لديها أى علم بالموضوع ! وقد روى لنا هاقلوك اليس أن فتاة أقدمت على

الاتتجار بدعوى أن مرضا خبيثا ألم بها ، فلما فحصت جثتها
بعد الوفاة ، تبين أن هذا المرض الخبيث لم يكن شيئا آخر
سوى « الحيض » ! ولكن ربما كان لاقدام هذه الفتاة على
الاتتجار مبررات نفسية أكثر عمقا وأبعد مدى ، إذ أن اليأس
من هذا « المرض العضال » لا يكفي وحده لاتيان مثل هذا
الفعل ، اللهم الا اذا كان قد صحبه صراع نفسى تأصل فى
أعماق نفسها منذ الطفولة . وعلى كل حال ، فانه ليس من
المستبعد أن يتخذ ظهور « الحيض » للمرة الأولى لدى الفتاة
طابع « المرض » ، إذ يخيل اليها أن « الدم » هو دليل على
حدوث « جرح » أو « نزيف » فى صميم أجهزتها الباطنة .
وقد تنوهم الفتاة أحيانا أن « الطمث » هو مظهر لعقوبة تنزل
بها لتدنسها أو لبعدها عن الطهارة الروحية . ولكننا نستطيع
أن نقرر - بناء على بعض الاحصائيات التى قمنا بها فى نطاق
ضيق - أن عدد الفتيات اللاتى يجهلن كل شئ عن الحيض
قبل حدوثه ، يكاد يكون محدودا جدا . فمن بين ١٧٥ مراهقة
(فى المدارس المصرية ما بين سن ١٢ و ١٨) لم يزد عدد اللاتى
كن يجهلن تماما كل شئ عن الموضوع وقت حدوثه لهن للمرة
الأولى عن ٢٤ مراهقة (بنسبة ١٤ ٪ تقريبا) ، بينما أكدت
٨٧ مراهقة أنهن كن على علم غامض بالمسألة ، وقالت ٦٤
مراهقة أنهن كن على علم بكل شئ ! وقد تبين لنا من هذا
الاستخبار أن معظم الفتيات فى مصر انما يستقين معلوماتهن عن
زميلاتهن البالغات ، وقلة نادرة هى التى تستمد معلوماتها من

الكتب الطبية . ومن العجيب أن بعض الفتيات قد زعن أنهن
عرفن الحقيقة من تلقاء أنفسهن (قبل حدوث أول حيض لهن) ،
بينما ذكرت احداهن أن « المسألة طبيعية ، وأن الفتاة تعرفها
بالبدية ! »

بيد أن نتائج التحليل النفسى لا تؤيد بحال مزاعم هذه
الفتاة ، فإن الملاحظ عادة أن الفتاة لا ترى فى « الحيض »
ظاهرة طبيعية ، بل هى قد تستقبل دورتها الشهرية الأولى
بشئ من الرفض أو الانكار ، وكأنما هى تحاول أن تدخل فى
روع نفسها أنها لا زالت طفلة ! ومن هنا فقد لا تطلع الفتاة
عن مواصلة نشاطها العادى ، كأن تقوم بألعابها الرياضية
المألوفة ، أو كأن تواصل السباحة أو الرقص أثناء العادة
الشهرية . وهذا المسلك قد يتردد على الخصوص لدى الفتيات
المسترجلات اللائى يعرفن فى قرارة نفوسهن أنهن لسن رجالا ،
ولكنهن يردن مع ذلك أن يبرهن على أنه لا فارق بينهما وبين
الرجال ! وقد يتسبب « الحيض » فى تولد ضرب من « الصراع »
فى نفسية الفتاة بين عاملين مختلفين : عامل « التقدم » الذى
يرحب بالحيض باعتباره مظهرا من مظاهر النضج والبلوغ ،
وعامل « التأخر » أو « النكوص » الذى يرفض الحيض
باعتباره مظهرا لا تتزاع الفتاة من طفولتها ، وصدمة نصيب
كل أرجاعها العاطفية المرتبطة بمرحلة الطفولة . ويذهب بعض
علماء النفس الى أن رد فعل البنت ضد « الحيض » تتوقف
الى حد كبير على الموقف الذى سبق لها أن اتخذته بازاء

العادات السرية . فمن المهم اذن أن نعرف ما اذا كانت الفتاة قد كفت عن ممارسة هذه العادات تحت تأثير الشعور باللائم ، أو ما اذا كانت لا تزال تناضل في سبيل التحرر منها وقد يؤدي الحيض بالفتاة الى الاقلاع نهائيا عن العادات السرية ، أو قد يدفع بها نحو ممارسة هذه العادات ، نتيجة لما يصاحب الحيض عادة من زيادة في « التهيج الجنسي » .

٢١ - وهناك أرجاع منحرفة قد تصحب الحيض الأول ، فنجد فتيات يصبن بأزمة حادة من « القلق » ، وقد يقترن هذا القلق بتوتر نفسي عام وقابلية شديدة للتهيج . رحينما يكون لدى الفتاة استعداد سابق للوقوع تحت سيطرة « عصاب » (ناشئ عن مظاهر صراع باطنى تولد ابان المرحلة السابقة على البلوغ) ، فان أول دورة شهرية قد تتسبب في ظهور هذا « العصاب » بطريقة علنية صريحة . وقد يتخذ قلق الفتاة في هذه الحالة طابع « الخوف المرضى » (Phobia) ، أو قد يستحيل اهتمام الفتاة بجسمها الى « هجاس » (Hypochondriasis) ، وكثيرا ما تؤدي الأحاسيس باللائم الى ردود أفعال من قبيل اليارانويا ٢ . ومهما يكن من شيء ، فان عملية النضج بأكملها هي الى حد كبير تكاد تكون مشروطة بموقف الفتاة من ظاهرة « الحيض » . وليس « النضج » سوى

Cf. H. Deutsch: «The Psychology of Women», (١)
vol. 1., pp. 164—165.

(٢) جنون التشكك والعظمة والشعور بالاضطهاد .

عملية « توتر باطن » تشترك فيها الشخصية بأكملها محاولة أن
تجاهد في سبيل التحرر وتحقيق التوافق مع الواقع من جهة ،
وبإذلة في الوقت نفسه مجهودا عنيفا في سبيل السيطرة على
الحوافز الجنسية من جهة أخرى .

وقد لوحظ أن موقف الفتاة - أثناء مرحلة التوقع - من
تلك التجربة الفسيولوجية ، سواء بالقبول أم بالرفض ، قد
يؤثر تأثيرا كبيرا على تاريخ حدوثها . فالمشاهد مثلا أنه حينما
ترفض الفتاة في قرارة نفسها هذه التجربة الفسيولوجية ، فقد
يتسبب عن هذا الرفض تأخر « الحيض » ، على الرغم من توافر
سائر أعراض النضج الجسمي والنفسى لدى الفتاة . أو قد
يحدث أحيانا أن يبدأ الحيض ، لكى لا يلبث أن يتوقف لمدة
سنوات . وقد ثبت أن تأثير العلاج العضوى على مثل هذا
الانحراف الوظيفى قلما يكون ناجعا ، بينما قد ينجح العلاج
النفسى فى إزالة أسباب الاضطراب بسرعة فائقة . وليس معنى
هذا أن العلاج النفسى لا بد أن ينجح فى جميع الحالات ، ولكن
الملاحظة قد دلتنا على أن لمثل هذه الاضطرابات العضوية
تاريخا سيكولوجيا هو الذى يتكفل بحلها . وقد يكون توقف
الحيض مباشرة بعد حدوثه للمرة الأولى بمثابة رد فعل اتخذ
صورة « صدمة نفسية » نتيجة للفرع الذى استقبلت به
ظاهرة « الطمث » . وهناك حالات مرضية ينقطع فيها المريض
تماما ، لكى يحدث نزيف فى موضع آخر من الجسم (من الأتف
مثلا أو خلف الأذن) ، دون أن يمتد بحال مثل هذا النزيف الى

الأعضاء التناسلية . وعلى الرغم من أن مثل هذه الحالات قد تكون نادرة ، فإن المحللين النفسيين قد وصفوا لنا حالات من هذا القبيل أطلقوا عليها اسم « الحيض بالانابة » (Vicarious Menstruation)^(١)

ومهما يكن من شيء ، فإن من المؤكد أن ظهور « الحيض » لدى الفتاة يمثل تجربة فسيولوجية وسيكولوجية حاسمة في سبيلها نحو النضج واكتمال الأنوثة . وقد ترتبط بظهور الحيض كل العوامل النفسية الكامنة في شخصية الفتاة من غضب ، وخجل ، وهبوط تقى ، وشعور بالنقص ، واحساس بالذنب ... الخ . وسواء أبدى لها الحيض باعتباره قمة و « لعنة » أم بدى لها باعتباره حدثا سعيدا يؤذن ببلوغها واكتمال أنوثتها ، فإن الفتاة سرعان ما تتحقق من أن وظيفتها مزدوجة : لأنها من جهة مخلوق جنسى له حوافزه الجنسية الفردية ، وهى من جهة أخرى خادمة للنوع البشرى . ولا بد للصراع بين هذين الحافزين : الحافز الجنسي والحافز التناسلى ، من أن يلعب دورا كبيرا فى حياة المرأة المستقبلية . ولكن الملاحظ فى هذه المرحلة أن الفتاة تربط بين « الحيض » وولادة الأطفال ، لأنها تعرف هذه التجربة الفسيولوجية التى مرت بها هى فاتحة عهد « الأنوثة » المكتملة . وإذا كان قد وقع فى ظن الكثير من

(١) أشارت إلى هذه الحالات المحللة النفسية هيلين دويتش فى كتابها المذكور آنفا (الجزء الأول ص ١٦٨) .

الفتيات أنه لا بد لهن من تجنب كل علاقة بالرجل أثناء الحيض
فذلك لشعورهن أثناء الدورة الشهرية بتزايد قابليتهن للتهيج
الجنسى ، أو لخلجتهن من الوجود في مجتمعات خوفا من اقتضاح
أمرهن ! وقد تتجنب بعض الفتيات كل علاقة بالرجال أثناء
الحيض بدافع الخوف اللاشعورى من الحمل ، خصوصا وان
الحمل مرتبط سيكولوجيا بالحيض . أما فى الأحوال العادية ،
فان الحيض اذا لم يربط فى ذهن الفتاة بين « الدم » و « الحمل »
و « الولادة » و « الموت » ، فانه قد يولد فى ذهنها فكرة
« الأنوثة » من حيث هى وظيفة جنسية تناسلية لم بعد فى
وسعها بعد الآن أن تتخلى عنها ! وصفوة القول ان « الحيض »
هو عملية بيولوجية ذات معنى سيولوجى ، وهى التى تدمغ
بطابعها كل حياة المرأة النفسية .

٢٢ - وليس مجرد ظهور « الحيض » هو الذى يعلن للفتاة
بلوغها مرحلة « الأنوثة » ، بل ان هناك أمارات أخرى هامة ،
اذ تشعر الفتاة بأن جسدها قد أصبح مرهف الحساسية ، حتى
أنها تشعر أحيانا بالاضطراب الجنسى لأقل ملامسة ، فضلا عن
أن مناطق الحساسية الجنسية عندها سرعان ما تنتشر فى كل
موضع من مواضع جسمها ، حتى ليكاد كل جهازها العضوى
يصبح « منطقة » ذا قابلية شديدة للتهيج الجنسى erogenous .
وقد يكون من سوء حظ الفتاة فى هذه المرحلة أن تلتقى
بأشخاص منحلين يستغلون براءتها فى اشباع انحرافاتهم
الجنسية ، فتجىء تجاربها الجنسية عندئذ مقترنة بالجزع

والخوف والكتمان . وعلى الرغم من نضج الأعضاء التناسلية لدى الفتيات في هذه المرحلة ، فقد يتوهمن أحيانا أن « القبلية » كافية للحمل ، وأن وظيفة الأعضاء التناسلية هي وظيفة بولية صرفة . وفي بعض الحالات ، نجد أن الفتيات قلما يربطن بين اضطراباتهن العاطفية وبين وجود أعضائهن التناسلية ، نظرا لعدم وجود ظاهرة عضوية واضحة لديهن (كالاتصاب مثلا عند الذكر) يمكن أن توضح لهن قيام مثل هذه الرابطة . والواقع أن الهوة في نظر الفتاة غير معبورة بين أحلام اليقظة الخيالية المتعلقة بالحب ، وبين تلك الوقائع الجسمية المرتبطة بالاتصال الجنسي الذي لا يخلو من حيوانية !

حقا ان ما يميز المراهقة أولا وبالذات هو أنها مرحلة الصراع من أجل تحقيق النضج واستكمال البلوغ ، ولكن من المؤكد أن وسيلة التحرر هنا (كما هي في كل طور من أطوار النمو) إنما تنحصر في الانصراف عن بعض القيم السابقة وصرف النظر عن الكثير من العلاقات القديمة . وهنا قد تتقمص الفتاة بعض الشخصيات التاريخية أو الروائية أو الفكرية ، محاولة أن ترضى نوازعها الجنسية من خلال هذا التقمص الوجداني ، ولو أن الحاجة الى « علاقة شخصية » قد تحول بينها وبين الاكتفاء بمثل الصلات الخيالية ! ولكن الملاحظ عموما أن « النرجسية » (Narcissism) قد تلعب دورا هاما في حياة المراهقة ، باعتبارها الأداة التمهيديّة لتقوية شعورها بذاتها . وهكذا تندفع الفتاة نحو الإعجاب بجمالها ، فتأمل نفسها في المرآة ، وتبدى إعجابها

بمفاتن جسمها ، أو تظهر استحسانها لقوامها الجميل ، وصدرها
الناهد ، وساقها المشوقتين ! وقد يولد العشق الذاتى لدى
الفتاة الكثير من أحلام اليقظة ، فتراها تلتمس فى تلك الأحلام
سبيلا الى امتلاك ذاتها على نحو شعري خيالى ! وحينما تجد
الفتاة نفسها وحيدة فى غرفتها ، أو حينما تتاح لها الفرصة لأن
توجد فى مجتمعات الرجال والنساء ، فانها قلما تفصل بين رغبتها
فى الجنس الآخر وعشقها لذاتها . والظاهر أن الفتاة لا تسعى
لتجميل نفسها حتى تأسر الرجل فحسب ، وانما هى تسعى أيضا
للمظهر باعجاب الرجل حتى تؤكد لنفسها أنها جميلة فاتنة !
بيد أن « النرجسية » حينما تزيد عن حدها ، فانها قد تزيد
من صعوبة العلاقات القائمة بين الفتاة وبين البيئة التى تعيش فيها
ومن هنا فان الفتاة قلما تتقبل النقد ، خصوصا من جانب أعضاء
أسرتها ، كما أنها قد تشعر بأن أحدا لم يعد يفهمها فى الوسط
الذى تعيش فيه . ولعل هذا هو الأصل فى اعتقاد الفتاة بأن أحدا
لم يعد يحبها ، وهى التى تضم بين جنبات صدرها قلبا يتسع
لحب الجميع ! والعجيب أن ثقة الفتاة بنفسها وشعورها بالوحدة
يسيران فى العادة جنبا الى جنب ، مما يدلنا على أننا هنا بازاء
تجربة سيكولوجية واحدة هى تجربة « اكتشاف الذات لنفسها » .
وحينما يزداد التوتر النفسى لدى الفتاة ، نظرا لرغبتها فى أن
تحب وأن تحب ، فانها قد تعتمد الى ابداء عطفها على تلك
« القلوب الكسيرة » التى تراها من حولها ، متنقلة فى حبها من
موضوع الى آخر بسرعة فائقة ! وليس المهم هنا هو الشخص

المحبوب نفسه ، بل المهم هو تجربة الحب ذاتها . ولهذا فقد تكون شخصية « المحبوب » خيالية محضة ، بدليل أن الفتاة قد تكتب خطابات غرام ترسلها الى نفسها ، أو هي قد تنهمك في علاقة غرامية موهومة ، فتتصور أنها عشيقة لشخص لم تتح لها الفرصة يوما لأن تتحدث اليه وجها لوجه ! ولعل من هذا القبيل مثلا ما نراه في مذكرات الأميرة الروسية ماريا بشكرتسف التي نجد فيها خير تعبير عن « نرجسية » المراهقة ، كما نجد فيها أحسن وصف لعلاقة غرامية موهومة (مع دوق روسي كبير لم تقع عليه عيناها يوما الا في الطريق العام عن بعد !) ولو أننا رجعنا الى مذكرات الفتيات عموما في هذه المرحلة ، لتبين لنا أن النزعة الانتقامية (Autisme) تكاد تسود معظم تفكيرهن ، حتى أن الأحلام الرومانتيكية لتصبح ظاهرة طبيعية في دور المراهقة ، خصوصا ما يدور منها حول « عبادة الذات » (Le Culte du moi) وقد قام كاتب هذه السطور بدراسة بعض « يوميات خاصة » لمراهقات مصريات ، فاستطاع أن يلمس من خلالها الى أي حد تحاول الفتاة أن تصل الى « امتلاك ذاتها » من خلال تلك المذكرات الخاصة . والواقع أن الفتاة قد تتحدث الى كراسية يومياتها ، كما كانت تتحدث - طفلة - الى « دميتها » ، ومن ثم فإن هذه الكراسية تتخذ في نظرها صورة « صديق » تفضي اليه بأسرارها ، وكأنما هي « شخص » حقيقي تروي له آمانها وآلامها ، وتسري اليه بأسرارها وأخبارها ! وقد تتجلى أحيانا في تلك المذكرات رغبة الفتاة الشديدة في تسجيل الحقائق التي

تخفيها عن أبويها وأهلها والقائمين على تربيتهما ، ولكن قد تجيء مثل هذه المذكرات أحيانا أخرى حافلة بالأخايل والتهاويل وأحلام اليقظة . وليس بدعا أن تهتم المراهقة بتدوين أسرارها ، فأنها تشعر الآن بأنها قد أصبحت تملك « ذاتا » خفية لا يدري من أمرها الآخرون شيئا ، بينما قد تكون هذه الذات في حقيقة مجرد ذات خيالية !

٢٣ - والحق أن ميل الفتاة في هذه المرحلة الى الاتجاه نحو المثل العليا ، وحدة شعورها بالذات العليا « Superego » ، مع شعورها في الوقت نفسه بالمسئولية ، يحملانها على الخلط بين ما تريد أن تكونه وما هي عليه بالفعل ، على الرغم من أن الفارق قد يكون شاسعا بين تلك « البطلة » التي تصورها الفتاة في مذكراتها ، وبين ذلك « الوجه الموضوعي » الحقيقي الذي يعرفه فيها والدها وأخوتها والقائمون على تربيتهما . وحينما يقع في ظن الفتاة أنها مختلفة عما يظنه الناس ، أو أنها أسمى بكثير مما يتوهم والدها وأعضاء أسرتها ، فقد يشتد لديها الشعور بتفوقها وتفردتها عن غيرها من الناس ، ومثل هذا الشعور قد يدفعها الى الظن بأن مستقبلها لا بد من أن يجيء أخصب وأحفل من حاضرها المقفر المجذب ! ونبعا لذلك فقد تعتمد الفتاة الى انتهرب من الحقيقة المظلمة ، والانصراف عن الواقع الضيق ، لكي تحلق بأحلامها وآمالها في عالم الأوهام والخيالات والتهاويل الجميلة البراقة ! وهنا قد تجعل الفتاة من جسدها معبدا قدسيا ، تحيطه بهالات عجية من الجمال والجلال ، أو قد تستسلم لتهاويل

الخيال فتضفى على الأشياء والأشخاص نورا سحرى لا سند له
من واقع أو حقيقة ، وفى مثل هذه الحالات لا يكون « السحر »
سوى مجرد دليل على أن الفتاة تجد نفسها مجعولة لحياة سلبية
منفعلة ، بينما هى تريد القدرة والفاعلية والسيطرة . ومن هنا
فإن المراهقة تؤمن بالسحر : سحر الجسم الفاتن الذى تكشف
عنه فتذل لأسرها أعناق الرجال ، وسحر المصير المجهول الذى
لا بد من أن يواتيها بما تشاء دون أن يكون عليها أن تحرك ساكنا !
أما هذا العالم الحقيقى الذى يفرض نفسه عليها بقوة ، وأما ذلك
الواقع المائل أمامها فى كل لحظة ، فإنها قد تحاول أن تنسى كل
شئ عنهما ، لكى لا تلبث أن تجد نفسها بازاء مطالب المجتمع ،
التي تعيد اليها شعورها بمسئوليتها وضرورة السير بخطى ثابتة
نحو الأنوثة المكتملة !

وحينما يشتد الصراع فى نفس الفتاة بين أحلام اليقظة
ومطالب الواقع ، فإنها قد تستسلم لنوبات اليأس والحزن
والبكاء . وإذا كانت « الدموع » شيئا مألوفا مستحبا لدى
النساء ، فذلك لأن البعض منهن قد يستبقى من دور المراهقة
هذه الحاجة الطبيعية الى المازوشية ، وتلك الرغبة الملحة فى
الاستسلام لدواعى الألم والصراع والهبوط النفسى . وقد
لا يخفف من حدة هذه الحالة سوى ظهور عامل « الجنسية المثلية »
الذى يجيىء فيضاف الى عوامل « النرجسية » و « المازوشية »
التي سبق أن لاحظناها لدى معظم المراهقات . وهكذا تظهر
« الصداقة » بين الفتيات ، فترى الواحدة منهن تبادل صديقتها

سرا بسر ، وتطلعها على خباياها الجنسية ودواخل حياتها العاطفية وقد تتخذ هذه « الصداقة » طابعا جنسيا صريحا ، فتكشف بعض الفتيات عن عريهن أمام البعض الآخر ، وتقارن الواحدة منهن بين صدرها وصدر زميلتها ، وقد تنتشر فيما بينهن عادات الملاطفة الجنسية ، ومظاهر الاتصال الموضعي أو الملامسة المنتشرة على سطح الجسم كله . وهنا يذهب بعض علماء النفس الى أن الاتصالات الجنسية فيما بين الفتيات تكاد تكون ظاهرة عامة هي أكثر انتشارا مما قد تتوهم . ولكننا نميل الى الاعتقاد - بناء على بعض الاحصائيات والمراجعات التي لا تخلو من دقة علمية - بأن الصداقة التي تتم بين الكثير من المراهقات لا تتخذ بالضرورة طابعا جنسيا صريحا . حقا ان انتشار مثل هذه الصلات الجنسية بين الفتيات يختلف باختلاف البيئات والأجناس والعادات ، ولكن ربما كان في استطاعتنا أن نقول بصفة عامة ان الأصل في معظم صلات « الجنسية المثلية » هو حافز الاتصال أو الاتحاد بالأُم . فالفتاة التي تتعلق بصديقة لها انما تعبر عن حاجاتها اللاشعورية الى الحب الأنثوي ، ذلك الحب الرقيق الذي عرفته الفتاة ابان عهد الطفولة . ولا يجب أن ننسى أن الميول الجنسية المثلية التي نجد لها لدى الفتيات قد لا تنفصل عن ميولهن الرجسية : فان اعجاب الفتاة بمفاتن جسم زميلتها انما هو بمثابة انعكاس لاعجابها بنفسها ، وتأکید لعبادة الأُنثى بصفة عامة . وبينما نجد أن الرجل من الناحية الجنسية هو بمثابة « ذات » مستقلة قائمة بذاتها ، لأن الرجال هم في العادة منفصلون بعضهم

عن بعض بحكم اتجاه كل واحد منهم الى موضوع « غبرى »
للحب^١ ، نجد أن المرأة هي أقرب ما تكون الى موضوع مطلق
للرغبة ، ولهذا فاننا كثيرا ما نشاهد في المدارس الثانوية للبنات ،
وفي منازل الطالبات ، « صداقات أنثوية » عديدة ، قد تكون
أحيانا روحية خالصة ، وقد تكون أحيانا أخرى جنسية متطرفة .

٢٤ - أما اذا نظرنا الى الطابع الخاص الذى يتخذه النشاط
الجنسى لدى المراهقة ، فاننا نلاحظ أن الفتاة تدرك صميم وجودها
الجنسى باعتبارها « رغبة » و « نداء » . ومهما حاولت الفتاة أن
تعبّر عن حاجتها الجنسية وتعطشها الى الرجل ، فانها لا تمتلك
سوى أن تضع نفسها فى الموضع الذى يسمح لها بأن « تستثير »
الرجل . ولسنا نريد أن نذهب الى حد القول بأن كل نشاط المرأة
الجنسى هو نشاط سلبي ، قابل ، « انفعالى » محض ، وانما كل ما
نريد أن نقرره هو أن حياة المرأة الجنسية مقترنة بالكثير من
الحوافز العميقة الباطنة . ومعنى هذا أن نشاط الفتاة الجنسى هو
نشاط خفى فستتر ، قد لا يملك التعبير عن نفسه بصراحة . ولعل
هذا هو السبب فى أن الفتاة قد تجد نفسها مضطرة الى تحمل
شهوتها الجنسية ، كأنما هى مرض خبيث تجهل أسبابه . فاذا أضفنا
الى ذلك مشاعر « الخجل » التى تقترن بأسباب بيولوجية
وسيكولوجية واجتماعية معروفة ، أمكننا أن نفهم لماذا يتخذ

(١) لسنا نزعم بذلك أن « الجنسية المثلية » نادرة بين الرجال ، ولكننا نرى أنها
ليست وليدة حاجة طبيعية لدى الرجل .

النشاط الجنسي لدى الفتاة طابع الانتظار والتوقع والسلبية .
وبينما تتخذ الرغبة الجنسية لدى الفتى صورة ايجابية عدوانية ،
نرى الفتاة لا تحلم قط بالاعتداء والاستيلاء ، وانما هي تحلم
بالارتقاء والاستسلام . وكثيرا مايبدو « الجسم » للفتاة شيئا هشاً
ضعيفا معرضا للخطر في كل لحظة ، فنراها تشعر بأنها مهددة في
صميم كيانها ، وأنها مجعولة للرجل يمتلكها ويسيطر عليها وينفذ
الى صميم وجودها ! واذ تحس الفتاة بأنها أنثى كاملة يمكن أن
تصبح « امرأة » ، فانها قد تجزع لفكرة « الاتصال الجنسي »
بشخص من الجنس الآخر . ولاشك أن معظم مخاوف الفتيات انما
ترتبط بفكرة « فض البكارة » و « نفاذ » عضو الرجل في صميم
جهاز المرأة ، وامتلاكه التام لجسدها باعتباره « موضوعا » يسيطر
عليه ويتحكم فيه . واذ كانت الفتاة تجزع لفكرة فض
بكارتها ، فما ذلك لأنها تعرف أن هذه العملية تقترن بجرح وألم ،
ولكن لأنها تخشى هذا الجرح وذلك الألم باعتبارهما مفروضين
عليها « من الخارج » . وهذا ما عبرت عنه إحدى الفتيات بقولها
« انه لمن المفزع حقا أن تفكر الفتاة في أنه لا بد للرجل من أن
« يخرقها » . » واذن فان « تخشاه الفتاة ليس هو عضو الرجل
في ذاته ، بل فكرة « الاختراق » أو « النفاذ » باعتبارها منظوية
على معانى الضعة والخضوع والانقياد !

وقد لاحظ كثير من المحللين النفسيين أن مخاوف الفتاة تزداد
في مرحلة المراهقة ، فتبدو في أحلامها المزعجة معانى « الاعتداء »
(Le Viol) ، ورموز « الفعل الجنسي » بما فيه من عنف وقسوة.

وقد أسهب فرويد في الحديث عن تلك الرموز الجنسية المختلفة ،
فبين لنا كيف أن اقتحام غرفة مظلمة أو اهداء جوهرة ثمينة أو
تقديم باقة من الورد أو ما الى ذلك من الأفعال ، يمكن أن تعبر في
الحلم عن رغبة الفتاة في الاستسلام للرجل . ولسنا نريد أن
نفيض في الحديث عن أحلام الفتاة ، فان « رمزية » الحلم تختلف
 باختلاف مكنونات اللاشعور لدى المراهقة . ولكن حسبنا أن
نقول انه على الرغم من رغبة الفتاة الشديدة في استكشاف معالم
الحياة الجنسية ، فانها قد تهتم كل ليلة باغلاق حجرتها قبل النوم
والتحقق من أن أحدا لم يتسلل اليها ، فضلا عن أنها قد تخشى
بالليل أن يقتحم غرفتها أحد ، أو أن يعتدى عليها لص أو شخص
أجنبي لا تعرفه ! وكل هذه المخاوف انما تعبر عن حرص الفتاة
على صيانة نفسها ، وخشيتها من أن يعتدى عليها أحد . وقد
يتجه عدااء الفتاة نحو أبيها فنراها تكره رائحة لفائف تبغه ، وتنفر
من أن تدخل الحمام بعده ، وتحاول أن تصده عنها اذا ما حاول
أن يبدى نحوها شيئا من العطف . وهناك حلم كثيرا ما يتردد
لدى الفتيات في هذه السن : اذ ترى الواحدة منهن في المنام أن
رجلا اعتدى عليها على مرأى من سيدة كبيرة في السن ، وبناء
على موافقتها ! ومعنى هذا الحلم فيما يرى بعض المحللين النفسيين
أن الفتاة تطلب رمزيا الى أمها أن تأذن لها بالاستسلام لرغبتها
الجنسية . وليس من شك في أن كثيرا من هواجس المراهقة انما
ترتبط بفكرة « البراءة » و « الطهر » : اذ تشعر الفتاة بأن
المجتمع يضطرها الى الرياء والنفاق ، ما دام يطلب اليها النقاء

المطلق والعفاف التمام ، بينما هي تحس في قرارة نفسها بأن حوافز الجنس تعمل عملها في صميم وجودها باعتبارها فتاة . ولعل هذا هو السبب في أن تحول الفتاة الى « امرأة » لا يتم في جو من « الخجل » فحسب ، بل هو يتم أيضا وسط عاصفة شديدة من الآلام النفسية و « تأنيب الضمير »^١ .

٢٥ - بيد أن الفتاة سرعان ما تتقبل وضعها باعتبارها « أثنى » مجعولة للرجل ، وبالتالي فإنها لن تلبث أن تفهم أن « الزواج » هو غايتها الوحيدة ، وأنه لا بد لها يوما أن تلتقى بفتى أحلامها ! حقا ان الشاب هو الآخر كثيرا ما يفكر في « فتاة » أحلامه ، ولكن الحب بالنسبة الى الشاب ليس سوى مجرد رغبة جامحة تطوف به وتلح عليه ، بينما هو بالنسبة الى الفتاة صميم « وجودها » باعتبارها امرأة قد جعلت للزواج والأمومة . وهذا ما عبر عنه نيتشه بقوله : « ان كل ما في المرأة لغز ، وليس لهذا اللغز من حل سوى الولادة .. ليس الرجل للمرأة الا وسيلة ، أما الغاية فهي دائما : الولد ... لقد خلق الرجل للحرب والقتال ، وأما المرأة فانه ليس ثمة لديها شيء سوى الحب والطفل ... وتبعا لذلك فان سعادة الرجل هي : « أنا أريد » ، وأما سعادة المرأة فهي « هو يريد » .^٢ والواقع أن المجتمع قد جعل من

(١) ارجع الى الفصل الاول من كتاب سيمون دي بوفوار (الجزء الثانى) عن « الجنس الآخر » ، ص ٧٤ - ٧٥ .

Cf. F. Nietzsche : "Thus Spoke Zarathustra", Engl. (٢)

Transl., 1933. PP 57 — 58.

« الزواج » المستقبل الأعظم للمرأة ، فانها لتلتبس في حمى السعادة الزوجية تلك الطمأنينة النفسية التي كانت تتمتع بها في ظل والديها . وليس الزواج بالنسبة الى الفتاة مجرد حياة آمنة تحلم فيها بالطمأنينة في ظل الرجل ، وانما هو أيضا السبيل الوحيد الذي يمكن عن طريقه أن تصل الى تحقيق كرامتها الاجتماعية باعتبارها زوجا وأما . وهكذا نجد أن هدف الفتاة الأول - بحسب الأوضاع الاجتماعية الراهنة - هو الحصول على زوج ! ولهذا فان « الرجل » سرعان ما يتخذ في نظرها صورة « الموجود الآخر » الذي يكمل قصصها ويضمن لها « الأهمية » ، باعتباره ذلك الموجود « الجوهري » الذي يحررها من منزل والديها ، وسلطة أمها ، والذي ينتقل بها من دور الطفولة الى حياة البلوغ والاكتمال .

ولا يجب أن ننسى هنا أن « جسم » الفتاة يلعب دورا كبيرا في تكوينها النفسي : فان الملاحظ عموما أن العلاقة وثيقة لدى المرأة بين الافرازات الغددية والجهاز العصبي . ولعل هذا هو ما حدا بالبعض الى القول بأن جسم المرأة « جسم هستيري » ليس فيه أدنى فاصل بين الحياة النفسية والعمليات الفسيولوجية . وقد يبلغ شعور الفتيات بأجسامهن حد المرض ، فبخيل الى الواحدة منهن أن جهازها العضوي مختل ، أو أنها على شفا الانهيار العصبي . ولكن بعضا من الأطباء قد لاحظ أن تسعة أعشار الفتيات اللائي يشتكين ، هن في العادة مريضات موهومات ، اما

لأن آلامهن المزعومة ليست بذات طابع فسيولوجي ، أو لأن ما لديهن من اضطراب عضوي هو مجرد عرض من أعراض حالة نفسية . فما يسبب الاضطراب في جسم الأنثى هو في جانب كبير منه ذلك الحصر النفسي الناشئ عن مجرد كونها أنثى !

وحيثما يتبدى الموقف البيولوجي للمرأة باعتباره « عائقا » يحول دون تقدمها ، فإنها في هذه الحالة لا تستند إلى أساس فسيولوجي محض ، بل هي تصدر في هذا التصرف عن سلوك اجتماعي محض أو تقليد جمعي سائد . أما حينما يعامل المجتمع الفتاة كما يعامل الفتى ، وحينما تلقى المراهقة من التشجيع مثلما يلقي المراهق ، فإن شيئا لا يمكن أن يعترض سبيلها باعتباره « عائقا » . بيد أننا في العادة نتطلب من الفتاة أكثر مما نتطلب من الفتى ، لأن المجتمع لا يريد منها فقط أن تؤدي واجبها كالرجل ، أو أن تنهض بأعباء مهنتها كالشاب ، وإنما هو يريد منها أيضا أن تكون « امرأة » . وهكذا نجد مثلا أن الأم في البيت تطلب إلى فئاتها أن تساعدوا في أعمال التدبير المنزلي ، بينما هي قلما تطلب إلى الولد شيئا من هذا القبيل . وإن الأم لتحترم ابنها وتقدر المجهود الذي يقوم به في سبيل أن يصبح رجلا ، بينما هي تفرض على فئاتها الكثير من القيود ، وتأبى أن تعترف بها بحق تكوين نفسها وتحديد مصيرها . وهكذا تجد الفتاة نفسها مضطرة إلى ضبط نفسها والتحكم في أعصابها ، ومن ثم فإنها سرعان ما تفقد تلقائيتها الطبيعية ، لكي تصبح في حالة توتر

مستمر ، وسأم دائم ، وحياء زائد . وقد تزيد كل هذه العوامل من شعور الفتاة بضالة شأنها ، فراها تقبل على مخصص وضعها « الشائن » باعتبارها مخلوقا قاصرا لا يملك حرية ، ولا يقوى على التصرف ! والواقع أن المجتمع لا يفرض على الفتاة أن تتجمل وتتزين فحسب ، بل هو يضطرها أيضا الى أن تحد من تلقائيتها ، وأن تستعيز عن أرجاعها الطبيعية برشاقة مصطنعة وجاذبية متكلفة ، تلقنها للفتاة شردمة من النساء اللائي يقمن بتربيتها وتوجيهها !

وإذا كانت نقطة البدء بالنسبة الى الشاب ليست من الصعوبة بمكان ، فذلك لأنه ليس ثمة تعارض بين رسالته باعتباره انسانا وبين واجبه باعتباره رجلا . وأما بالنسبة الى الفتاة ، فإن الأمر على خلاف ذلك ، لأن ثمة هوة عميقة غير معبورة بين موقفها باعتبارها كائنا بشريا ، وبين رسالتها باعتبارها « امرأة » . وليس هذا التعارض وليد واقعة بيولوجية أو تكوين طبيعية ، بل هو وليد تحكم صناعي أريد به للمرأة أن تكون كائنا « ثانويا » لا يعترف له بالحرية أو الاستقلال أو الفاعلية . وليس من شك في أن أول مشكلة لا بد من أن تصطدم بها المرأة في مهتل حياتها هو شعورها بذلك التوتر الحاد بين الاستقلال الذي كانت تتمتع به - فتاة - ابان الطفولة ، وبين هذا « الخضوع » الذي أصبح مفروضا عليها باعتبارها « امرأة » . ولعل هذا هو السبب في أن المرأة سرعان ما تنسحب من المجتمع ، فلا تعود

تحيا وجودها الخاص باعتبارها « ذاتا » ، توجد في « الخارج »
وتعمل مع الآخرين ، بل تشرع في اتخاذ موقف « الآخر »
(L' Autre) الذي يعرض نفسه على الرجل ، ويضع نفسه
تحت أنظار الرجل ، ويعمد الى « التمثيل » حتى يجذب الرجل ،
ويصبح مجرد « موضوع » يحكم عليه الرجل !

الفصل الرابع

المرأة في حياتها الزوجية

٢٦ - لن نتحدث عن مرحلة « الانتظار » لدى الفتاة ، ولن نتحدث عن « المناورات » المختلفة التي لابد من أن تقوم بها الفتاة - أو أهلوها - في سبيل « الحصول » على « زوج » ، ولن نتحدث أيضا عن « مساومات » الزواج بما فيها أحيانا من مبادلة أو مقايضة ، وانما سنمضي مباشرة الى الحديث عن « المرأة المتزوجة » ، على اعتبار أن الفتاة مجمولة للزواج ، وأن نظام « الزواج » هو التبرير الاجتماعي الوحيد لكل وجودها ! والواقع أن « العانس » لا زالت محقرة في معظم المجتمعات ، لأن « الزواج » هو في نظر الكثيرين طريقة المرأة الوحيدة في كسب عيشها ، فضلا عن أن « الاشباع الجنسي » يكاد يكون محرما على الفتاة في غير نطاق الزواج . وليس في استطاعتنا بطبيعة الحال أن نعرض لدراسة المشكلات الاجتماعية المرتبطة بالزواج ، فذلك أمر يخرج بنا عن النطاق الضيق الذي حددناه لأنفسنا منذ البداية ، وانما حسبنا أن نقول ان معظم المجتمعات تنكح على

الفتاة فيما قبل الزواج حق اشباع غريزتها الجنسية ، بينما هي قد لا تجد حرجا في أن يكتسب الشاب بعض التجارب الجنسية .
وسواء أكانت هذه التفرقة وليدة نظرة بيولوجية لها اعتبارها ، أم كانت مترتبة على تمييز اجتماعي سابق على كل اعتبار آخر ، فإن من المؤكد أن لهذه التفرقة أثرها في انعدام « التكافؤ الجنسي » بين الرجل والمرأة فيما بعد الزواج . وإن البعض ليذهب الى أن في وسع الفتاة أن تضمن لنفسها « العفة » بجهد أيسر من الجهد الذي يحتاج اليه الشاب ، ولكن مثل هذه المزاعم لم تتأيد علميا بصفة قاطعة ، بل لا زال كثير من علماء النفس يأخذون بالرأي القائل بأنه ليس ثمة أى فارق جنسى أصيل بين الرجل والمرأة من حيث شدة الحافز الجنسي . ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأنه لما كان للفعل الجنسي بالنسبة الى المرأة نتائج أخطر مما له بالنسبة الى الرجل ، فإن من الطبيعي للفتاة أن تكون أكثر ترددا وأبطأ اختيارا من الشاب ، حينما يكون عليها أن تتخذ شريكا لها في الحياة . وإذا كان البعض قد زعم بأن الرجل يميل الى « التعدد » ، بينما المرأة تميل الى « الواحدية » - في الزواج - فقد يكون في وسعنا أن نقول ان كلا من الرجل والمرأة « واحد » في الزواج « Monogamic » « تعددي » في « الحب » « Poly-erotic » . حقا ان بعض المجتمعات التي لا تقر « الحب » خارج نطاق « الزواج » ، قد أباحت نظام « تعدد » الزوجات ، ولكن من المؤكد أن الأخذ بنظام الزواج « الواحد » لا يمنع الرجل والمرأة من

الاستجابة حسيًا لأي موضوع جديد للحب . ومعنى هذا أنه ليس ثمة فارق جنسي بين الرجل والمرأة من هذه الناحية .^١ أما إذا نظرنا إلى موقف « المرأة » بالنسبة إلى « الزواج » فأننا سنجد أن « الزواج » يعنى في نظر « المرأة » أكثر مما يعنى في نظر « الرجل » . وإذا كان الرجال في العادة أكثر استعدادًا من النساء للرضا بالزواج ، فذلك لأن المرأة تعلق الكثير من الآمال على الزواج ، بينما الرجل يتجه بالقسط الأكبر من اهتمامه نحو عمله خارج المنزل . والواقع أن البيت لا يشغل من وقت الرجل سوى جزء محدود ، بينما تكاد الحياة المنزلية أن تكون هي كل شيء في نظر المرأة . ولما كانت المرأة تشعر بأن « الزواج » هو كل حياتها ، فإن المشاكل التي تتولد عن حياتها الزوجية تنطوي في نظرها على معانى أعمق مما تنطوي عليه في نظر الرجل . ولعل هذا هو السبب في أن نسبة عدد النساء الساخطات على الحياة الزوجية أكبر بكثير من نسبة عدد الأزواج الساخطين على تلك الحياة . حقا أن الزواج هو بالنسبة إلى كل من الرجل والمرأة (على حد سواء) مشكلة نفسية واجتماعية خطيرة ، لأن على كل منهما أن يعمل على تحقيق ضرب من « التوافق » مع الشريك الآخر ، ومثل هذا التوافق لا يمكن في العادة أن يتم إلا ببطء شديد وتحت تأثير عوامل نفسية

Cf. H. Ellis : "Psychology of Sex" London, W. (1) Heinemann, 1944, PP. 242 — 3.

عديدة ، ولكن من المؤكد أن المرأة قد تلقى الكثير من الصعوبات في سبيل تحقيق هذا « التوافق » ، بينما قد تزيد قدرة الرجل على « التكيف » عن نظيرتها لدى المرأة . وربما كان الفارق بين الزوجات اللائى تتوفر لديهن مثل هذه القدرة على « التكيف » ، وغيرهن من الزوجات اللائى لا ينجحن في « التوافق » مع أزواجهن ، هو أن النوع الأول من الزوجات ذو نزعة موضوعية ، فضلا عن أنه لا يكثر كثيرا بضروب الصراع العقلى المختلفة ، ومن ثم فإنه قد يقترب فى المتوسط من « الرجل » العادى ، بينما يتصف النوع الثانى بشخصية غير متكاملة عملت على تعقيدها عوامل نفسية عديدة ابان الطفولة أو المراهقة .

وإذا كانت الاحصائيات قد دلتنا على أن عدد الزوجات الراضيات عن « الزواج » أقل بكثير من عدد الأزواج ، فذلك لأن المرأة كثيرا ما تصاب بخيبة أمل شديدة حينما تتحقق من أن « المثل الأعلى » الذى كانت قد تصورته فى مخيلتها للرجل لا يكاد يتطابق مع الحقيقة الواقعة . وقبل أن نتحدث عن مشاكل المرأة بعد الزواج ، نرى لزاما علينا أن نشير الى هذه الحقيقة الهامة ألا وهى أن الفتاة ترغب فى الزواج وترهبه ، فهى لا تقدم على الزواج الا وفى نفسها الكثير من الهواجس والاضطرابات . ولا يرجع خوف الفتاة من الزواج الى مجرد كونها مضطرة الى الانفصال عن ماضيها ، وقطع علاقتها بطفولتها وشبابها وصدقاتها وذويها ، وانما قد يكون مرجع الجانب الأكبر من هذا الخوف

الى نوع الحياة الجديدة التى تنتظرها ، وطبيعة تلك التبعات والتكاليف التى سيكون عليها أن تتحملها . وحينما تكون الفتاة صغيرة السن ، فانها قد تشعر بحاجتها الى استشارة أمها ، والرجوع الى ذويها ، أو قد تجد فى زوجها شخصا « غريبا » لا يعوضها عن والدها . فاذا أضفنا الى ذلك أن تربية الفتاة الدينية قد تصور لها الحياة الجنسية بصورة حيوانية ، فتظل تعاني الكثير من المخاوف لشعورها بأن مجرد الاستمتاع بالعملية الجنسية هو اثم منكر ، أمكننا أن نتصور لماذا كان « تكيف » المرأة مع الحياة الزوجية عملية نفسية عسيرة . وقد يحدث أحيانا أن تظن الفتاة أن « الفعل الجنسى » هو من جانبها مجرد « خدمة » تؤديها للرجل ، فسرعان ما يحول هذا الشعور بينها وبين « المتعة الجنسية » ، خصوصا اذا لم يوفق الزوج فى أن يحقق لزوجته المتعة التى يحققها لنفسه . هذا الى أن زواج الفتاة قد لا يكون وليد « حب » أو « علاقة عاطفية » ، بل قد يكون مجرد « صفقة تجارية » ، أو لمجرد التخلص من « العزوبة » ، أو على سبيل كسب العيش بطريقة شريفة !

٢٧ - أما بخصوص المشاكل النفسية التى قد تترتب على أول علاقة جنسية ، فإن من المعروف أن لباقة الرجل تلعب دورا كبيرا فى كل حياة المرأة الجنسية فى المستقبل . وقد روى لنا اشتيكل (Stekel) أن « البرود الجنسى » (Frigidité) الذى قد تصاب به النساء ، كثيرا ما يكون وليد « أنانية » الرجل ، واندفاعه الى اشباع رغبته الجنسية على حساب آلام المرأة فى

الليلة الأولى للزواج . وحينما يكون الرجل أخرج ، فقد تتوزد
لدى المرأة « عقدة نقص » تنضاف اليها أعراض « عصاب »
مزمن ، اذ تشعر المرأة بأنها ليست كباقي النساء ، أو أن تكوينها
غير طبيعي ... الخ . ولكن كما أن المرأة قد تحقد على الرجل
الذى يفض بكارتها بعنف ، دون مراعاة لآلامها ، فإنها قد تحتقر
الرجل الأخرق الذى يقضى ليلة الزفاف فى محاولات يائسة دون
أن ينجح فى فض بكارتها . وقد روت احدى الباحثات أن بعض
الأزواج الخرقى قد يهيب بالطبيب من أجل مساعدته على فض
بكاره زوجته ، بدعوى أن غشاء بكارتها غير طبيعي ، ولكن هذا
العدر قلما يكون قائما على أساس . وفى مثل هذه الحالات كثيرا
ما يتعرض الزوج لاحتقار دائم من جانب زوجته ، فتعرض
« رجولته » لمحنة قاسية ، اذ تشعر زوجته بأن ليس لديه من
القوة والشجاعة ما يؤهله للظفر بتقديرها واحترامها . وحتى اذا
ما كان تصرف الزوج هو وليد رغبته الصادقة فى تجنب مقاومتها
وعدم تعريضها للألم الشديد ، فقد يكون هذا التصرف من
جانبه مدعاة لاثارة مشاعر الحقد والغضب لديها ، نظرا لأنه لم
ينجح فى اشباع رغبتها المازوشية العميقة فى أن تغلب على
أمرها !

واذا كان للاتصال الجنسي الذى يتم لأول مرة بين الزوج

Cf. Deutsch : "Psychology of Women", Vol. II., (1)
PP. 82 — 83.

والزوجة أهمية كبرى في حياة المرأة ، فذلك لأن المجتمع يحيط
« ليلة الزفاف » في العادة بهالة عجيبة من السحر والتقديس .
وكثيرا ما يستولى الفزع على قلب الفتاة حينما تعلم أنها مقبلة
على تجربة هامة تحترمها الأسرة ، ويقدها الدين ، ويحيطها
المجتمع بالكثير من الرسميات ؛ فاذا ما اختلى العروسان أحدهما
بالآخر ، استحال هذا التقديس الى « عملية » أليمة قد لا تخلو
من صراع وعنف وألم ! ولا ريب أن هذا التناقض الصارخ بين
« الطقس الدينى » و « الفعل الحيوانى » هو الذى يولد فى
نفس الفتاة السخط على المجتمع بريائه وكذبه ، والثورة على
زوجها لاندفاعه وحيوانيته ! ولعل هذا هو السبب فى أن كثيرا
من الفتيات قد يحتفظن لليلة الزفاف بأسوأ الذكريات ، خصوصا
إذا كانت الزوجة لم تتلق من « التريبة الجنسية » ما تستطيع معه
أن تسهل للزوج مهمته الشاقة . وعلى كل حال ، فإن كل فشل
يلقاه الزوجان فى ليلة اتصالهما الجنى لأول مرة ، انما تعود
تبعته على الزوج والزوجة معا ، لأنه ليس من شك فى أن انعدام
خبرة الزوج من جهة ، وجهل الزوجة بما فى الاتصال الجنى من
مجهود فسيولوجى وسيكولوجى معا من جهة أخرى ، هما
المسئولان أولا وأخيرا عن تحول « الاتصال الجنى » الى
واجب شاق . وربما كانت الصعوبة فى دور الرجل براجعة الى أنه
فى حاجة الى أن يمزج القوة باللفظ ، وأن يتغلب على مقاومة
المرأة بالرفق ، وأن يستعمل معها الأدب والذوق دون أن ينسبه
الاحترام حرارة الحب ! ونحن نعلم أن موقف المرأة فى العادة

خليط من المتناقضات : فهي تريد ولا تريد ، وهي ترغب ولا ترغب ، وهي تقاوم ولكنها لا تلبث أن تستسلم . وكل هذه انعوامل النفسية المتناقضة تزيد من صعوبة مهمة الرجل ، وتجعل « اللباقة » شرطا أساسيا للزوج الناجح . أما اذا أعمت الرجل شهوته ، فاندفع الى تحقيق رغبته ، دون مراعاة لنفسية شريكته ، لم تلبث « العملية » الجنسية أن تصبح في نظر الزوجة « واجبا » شاقا . تقدم على أدائه لمجرد ارضاء زوجها !^١

٢٨ - حقا ان الزواج شيء أكثر من مجرد « رابطة جنسية » ، ولكن أحدا لم يعد يستطيع اليوم أن ينكر قيمة العامل الجنسي في كل زواج موفق . وعلى الرغم من أن التوافق الجنسي بين الزوجين هو عملية معقدة تستلزم الكثير من الجهد والوقت ، إلا أنه قد يكون من الخطأ أن نظن أن عامل « الزمن » وحده هو الكفيل بتحقيق مثل هذا التوافق . وآية ذلك أن هناك زوجات قد أنجبن أولادا وبنات ، دون أن تعرف الواحدة منهن معنى « النشوة » الجنسية ! والواقع أن « ايقاع » الحياة الجنسية لدى المرأة قد يختلف عنه لدى الرجل ، نظرا لارتباط المتعة عند الرجل بظاهرة بيولوجية محددة (هي القذف) ، بينما تظل المتعة الجنسية عند المرأة ظاهرة سيكولوجية معقدة بطيئة . ولعل هذا هو السبب في أن للجماع عند الرجل بداية ونهاية ، بينما هو

Simone de Beauvoir: "Le Deuxième Sexe", Vol. (١)
II., PP. 220 — 221.

عند المرأة عملية نفسية ليس لها بداية محددة ، وقلما تنتهى بشكل حاسم واضح المعالم . وقد يخطئ الرجل حينما يحاول أن يفرض على المرأة ايقاعه الجنسي المحدد ، لأنه عندئذ انما يحطم تلك الدائرة السحرية العجيبة التى تتحقق فى داخلها المتعة الجنسية المعهودة لدى المرأة . واذن فان اشباع الحاجة الجنسية لدى المرأة ليس مجرد مجهود « صناعى » يستلزم من الرجل تحقيق التوافق بين ايقاعين مختلفين ، وانما نحن هنا بصدد عملية معقدة تجعل حياة المرأة الجنسية مشروطة بالموقف العام ككل . وان الرجل ليتصور العملية الجنسية أحيانا على أنها صراع يقوم فيه بدور البطل ، ولكن المرأة لا تريد دائما العنف والقوة ، بل هى كثيرا ما تشعر بالحاجة الى العطف والرقّة . واذا كانت أكبر البواعث الجنسية استشارة لدى امرأة هى الملامسة والملاطفة وضروب المداعبة ، فذلك لأنها فى العادة تتنظر من الرجل أن يشيع فى كل جسدها تلك الحاجة الغامضة الى الاستسلام ، بدلا من أن يحصر كل همه فى اقتحام « قلعتها » الصغيرة فى عنف وقسوة وايلام ! اتنا لا نكر أن « المازوشية » تلعب دورا كبيرا فى حياة المرأة الجنسية ، ولكننا نعتقد أنه اذا لم ينجح الزوج فى أن يمنح زوجته ما تحتاج اليه من حب ورقة وحنان ، فانها لن تستجيب مطلقا نسائر المهيجات الجنسية . وليس يكفى أن تقول مع بلزاك « ان المرأة قيثاره لا تبوح بأسرارها الا لمن يعرف كيف يعزف ، على أوتارها » ، وانما يجب أن نضيف الى ذلك أن المرأة لا تستجيب الا لذلك الزوج الذى يأخذ بيدها فى دعة ورفق لكى يسلمها

الى أحضان « النشوة الجنسية » حيث تختلط معانى العناق بين الزوج والزوجة بمعانى الحنان بين الأم والطفلة !
أما القول بأن النساء أقل رغبة فى الجماع من الرجال ، أو أن « البرود » الجنسى ظاهرة أكثر انتشارا بين النساء منها لدى الرجال ، أو أن الحافز الجنسى لدى المرأة أضعف منه عموما لدى الرجل ، فإن هذه كلها مزاعم قد لا يصح الأخذ بها فى معرض المقارنة بين الرجل والمرأة . حقا ان الكثير من علماء النفس قد اهتموا بدراسة ظاهرة « البرود الجنسى » (Frigidité) لدى المرأة ، ولكن هؤلاء قد لاحظوا أنه قلما توجد نساء مجردات تماما من كل رغبة جنسية ، بحكم تكوينهن البيولوجى والعصبى . وكثيرا مايكون الأصل فى « البرود الجنسى » هو الكبت النفسى الناشئ عن التربية الدينية أو الأخلاقية ، خصوصا فى البلاد المحافظة حيث لازال « الاتصال الجنسى » يصور للمرأة بصورة الاثم أو الخطيئة . وقد يرتبط « البرود الجنسى » لدى المرأة بذكرىات سيئة ارتبطت بفض بكارتها ، أو قد يكون وليد شعورها بالخوف من « الحمل » . ولا شك أنه حينما تجد المرأة نفسها محاصرة بشبح الخوف من الحمل ، فإنها لابد من أن تقوم برد فعل دفاعى ضد عملية الاتصال الجنسى . وقد يكون السبب فى البرود الجنسى أحيانا هو أن الرجل قد اعتاد أن يوقظ الرغبة الجنسية لدى المرأة ، لكى لا يلبث أن يتركها دون أن يشبع لديها تلك الرغبة ، وتبعا لذلك فإن المرأة لا تلبث أن ترمى فى أحضان « البرود الجنسى » ملتزمة لديه أداة دفاع ضد زوجها ،

فلا تعود تسمح لغريزتها بأن تتيقظ دون اشباع . ومعنى هذا أن السبب في « برود » المرأة جنسيا قد يكون مرجعه الى الرجل، لا الى المرأة . ١

ولسنا نريد أن نسترسل في دراسة هذه الظاهرة ، ولكن حسبنا أن نلفت النظر أولا وبالذات الى ضرورة التفرقة بين وجود « الليبدو » (Libido) لدى المرأة ، وبين وجود المتعة الجنسية أثناء الجماع : فقد يوجد لدى المرأة الأول منهما دون الثاني ، وقد ينعدم كلاهما دون أن يكون في الوسع وصف تلك المرأة بأنها عديمة الاحساس الجنسي تماما . وقد لاحظ بعض الباحثين أن نسبة كبيرة من النساء اللاتي تضعف لديهن القدرة على بلوغ « المتعة » الجنسية التامة ، هن في الوقت نفسه ذوات رغبة جنسية تفوق المتوسط . وقد يحدث أحيانا أن تظل المرأة « باردة » جنسيا مع طائفة من الرجال ، لكى لا يلبث الدافع الجنسي أن يتولد لديها أخيرا ، بعد أن تكون قد تجاوزت العقد المتوسط من عمرها . وهناك حالات لا تعرف فيها المرأة « اللذة الجنسية » عن طريق الاتصال الجنسي ، بل تكون المتعة عندها مرتبطة ببعض مناطق الحساسية الجنسية المنتشرة على سطح جسمها . وقد تحاول المرأة أحيانا أن تتخذ من « البرود الجنسي » أداة عقوبة تفرضها على نفسها أو على زوجها حتى تنتقم لنفسها من

Cf. H. Ellis : "Psychology of sex", 9 th ed., 1944, (١)

Ch. VI. PP. 263 — 264.

نفسها أو من زوجها ، ولكن هذا « البرود » المصطنع كثيرا ما
ينطوى على ضرب من خداع النفس أو سوء الطوية .
وكثيرا ماتلتجىء المرأة في علاقتها الجنسية بالرجل الى أساليب
ملتوية ، فنراها مثلا تتصور أن في الاستجابة لرغبة زوجها
الجنسية ما ينتقص من كرامتها ؛ وعندئذ قد تعمد الى النيل من
كرامته في صميم رجولته ، بأن تشعره بأنها لا تجد أية لذة في
الاتصال به ، أو بأن تحاول بكافة الطرق استثارة غيرته ، أو بأن
تتهرز كل فرصة لابتداء اعجابها بغيره من الرجال . وقد يمنعها
الحذر من أن تمضى في هذا السبيل الى غايته ، فنراها تقتصر
على مصارحة صديقاتها ببرودها الجنسي ، أو قد تكتفى بكتابة
مذكرات تعترف فيها بأنها لم تعرف اللذة يوما في فراش الزوجية !
وهناك نساء كثيرات متزوجات يجدن لذة كبرى في أن يفضين
الى صديقاتهن بأسرارهن الجنسية ، وكيف أنهن يبدن لرجل
أمارات اللذة والاستمتاع . بينما هن لا يجدن في الاتصال به
أدنى متعة ! وقد تنتهز النساء هذه الفرصة للسخرية من الرجل ،
وخلع صفات السذاجة والغرور عليه ؛ وكثيرا ما تعلو صيحات
الاستهزاء بين هؤلاء النسوة حينما تتفنن الواحدة منهن في وصف
زوجها المخدوع الساذج المغرور ! ولكن الملاحظ أن هذه
« الاعترافات » نفسها كثيرا ما تكون مجرد « تمثيلية » أخرى
تخدع بها المرأة نفسها ، اذ شتان بين البرود الجنسي ومجرد
الرغبة الارادية في التسلح بمثل هذا البرود ! وهناك حالات أخرى
— ولكنها أقل حدوثا — تحاول فيها المرأة أن تقتص لنفسها من

امتياز الرجل العتلى ، بأن تفرض عليه بالليل معاييرها الجنسية ،
فحاول أن تعوض شعورها بالنقص ، بأن تشعر زوجها بأنه أعجز
من أن يشبع غريزتها ، أو أن ينهض بوظيفته الزوجية على الوجه
الأكمل !

٢٩ - وقد يكون من الطريف أحيانا أن يعتمد الباحث النفسى
الى دراسة حالات « الخيانة الزوجية » التى كثيرا ما تؤدي الى
« الطلاق » . وهنا نجد أن خيانة المرأة لزوجها قد تكون أحيانا
وليدة الاحتجاج والتمرد ، لا سعيًا وراء الحب واللذة . وقد
توهم أحيانا أن تمتع المرأة بالحرية هو المسئول عن تلك
« الاباحية » التى قد تدفع بها الى « الخيانة » ، ولكن المشاهد
عادة أن ثورة المرأة على حالتها الاجتماعية (حينما تجد نفسها
أسيرة للرجل) ، هى المسئولة عن التجائها الى « الخيانة »
باعتبارها سلاحا تطعن به الرجل . وحسبنا أن نرجع الى مارواه
المستشرق الانجليزى وليم لين فى كتابه المشهور عن « المصريين
المحدثين » ، شمائلهم وعاداتهم فى النصف الأول من القرن التاسع
عشر « عن كيد المصريات وأساليبهن فى خيانة أزواجهن ، حتى
تتحقق من أن نظام « الحريم » لم يحل بين المرأة وبين الانتقام
من زوجها بالخيانة . حقا ان هناك أسبابا أخرى عديدة للخيانة
الزوجية ، فانه لمن المعروف أن امكانيات المرأة الشبقية Érotique
تكاد تكون غير محدودة ، فضلا عن أن انعدام التوافق الجنسى
قد يدفع بالمرأة الى السعى وراء تلك « النشوة » الجنسية التى
لم تستطع أن تظهر بها فى صحبة زوجها ، ولكن من المؤكد أن

للزواج الفاشل أسبابا أخرى قد تكون أعمق من ذلك بكثير
وآية ذلك أن الجاذبية الجنسية نفسها قد تنعدم ، حينما تصبح
العلاقة الزوجية قائمة على العدا ، والاشمئزاز ، وانعدام الاكتراث.
وان المرأة لتعلق الآمال الكبار على الزواج ، فاذا ما وجدت
نفسها غارقة في محيط مظلم من السأم والألم والانتظار وخيبة
الآمل ، فان ثورتها على « الزواج » سرعان ما تتحول الى « الزوج »
نفسه . وحينما تعجز المرأة عن حل مشكلتها بالدموع وانشكاة
والمشاجرة ، فقد تلتجىء الى سلاح « الغيرة » ، أو قد تعتمد الى
تخطيط « عشا » نفسه (فوق رأسها ورأس زوجها معا !) وليس
من شك في أن كل مشاكل الزواج انما ترجع الى أن الزوجين
كثيرا ما ينسيان أن « الزواج » قطعة مصغرة من الحياة ، وأنه
بالتالى لا بد من أن ينطوى على ما فى الحياة من صعوبات
وعوائق وتعقيدات . وليست صعوبة الزواج براجعة الى أنه
وظيفة « غرامية » ووظيفة « اجتماعية » معا ، وانما الصعوبة
الكبرى فى هذا النظام هى أنه عملية « توافق » أو « تكيف » ،
ومن ثم فانه ليس « منحة » ، بل « كسبا » بطيئا يتم بتضافر
الكثير من الجهود .^١

أما حينما يعتمد الزوجان الى حل مشكلتهما بالطلاق ، فانهما
انما يعبران بذلك عن فشلهما التام فى تحقيق هذا « التوافق »

(١) ارجع الى كتاب « سيكولوجية الجنس » للدكتور يوسف مراد ، الفصل
الثالث « الحب ومشكلات الزواج » ص ٦٧ - ١٢٦ .

أو « التكيف » . وفي هذه الحالة قد تكون أسباب الطلاق هي بعينها أسباب « انعدام التكامل في الشخصية » .^(١) ولا نرانا في حاجة الى القول بأن الأشخاص الذين يقدمون على الطلاق ، ظنا منهم بأن فيه علاجا لمشكلتهم ، كثيرا ما يصابون بخيبة أمل جديدة في زواجهم الثاني . وهنا قد تشتد حملتهم على « النساء » ، أو قد يحملون على « الزواج » نفسه باعتباره نظاما اجتماعيا فاشلا ، بينما « الفشل » في الحقيقة كامن فيهم هم ، لا في نظام الزواج نفسه ! وليس في استطاعتنا بطبيعة الحال أن نأتى هنا على الأساليب العملية لعلاج مثل هذا الفشل ، ولكن حسبنا أن نقول ان « التوافق » المنشود بين الزوجين لا بد من أن يتم في ميادين ثلاثة : ميدان العلاقات الجنسية ، وميدان العلاقات النفسية ، وميدان العلاقات الترابطية (Associational Relationships) التي تتم في الحياة الجمعية المشتركة . وحينما يقع في ظن الرجل أن كل علاقته بزوجه لا يجب أن تتعدى الميدان الأول ، أو حينما يتوهم أن زوجته ليست سوى وسيلة للمتعة الجنسية ، فانه عندئذ يضحى بقطبين هامين من أقطاب الزواج في سبيل قطب واحد فقط . وحينما يفهم الزوج أن « فن الحب » هو ثمرة خبرة سيكولوجية طويلة ، وأن التوافق الزوجي لا يمكن أن يتم بين عشية وضحاها ، فانه قد يأخذ بيد زوجه في سبيل مساعدتها

(١) ارجع الى مقالنا « العوامل المؤدية الى انعدام التكامل في الشخصية » ، مجلة علم النفس ، المجلد ٣ ، عدد ٢١ يونيه سنة ١٩٤٧ ، ص ١٠٧ - ١١٢ .

على الوصول بحياتهما الزوجية الى مستوى « التناغم » الجنسي،
والنفسى ، والاجتماعى . ولعل هذا هو ما عناه أحد الباحثين
حينما قال « ان الزواج السيكولوجى ، أعنى الزواج باعتباره
علاقة شخصية ابداعية ، هو « كسب » يحصله شريكان، وليس
بالضرورة حالة يجدها الزوجان ليلة الزفاف » . ١

٣٠ - أما اذا عدنا الى موقف المرأة من الزواج ، فاننا سنجد
أن حملات كثيرة قد وجهت من جانب النساء ، الى هذا النظام
الاجتماعى . وسواء أكانت هذه الحملات هى وليدة « عقدة
الذكورة » ، أم كانت مجرد تعبير عن رغبة الكثيرات فى التحرر
من تبعات الزوج ، أم كانت مجرد تقرير لحقيقة واقعة هى سأم
المرأة من الحياة المنزلية ، فان من المؤكد فى نظرنا أن « الزواج »
ليس نظاما اجتماعيا فاشلا ، كما تزعم سيمون دى بوقوار .
ولسنا ندرى كيف تزعم هذه الكاتبة أن « الزواج » يقضى على
شخصية المرأة ، ويحيلها الى مجرد كائن تافه عديم الأهمية ، بينما
هى تعترف بأن اكتمال نمو المرأة الجسمى والنفسى لا يتم الا
بالأمومة . أما الزعم بأن الزواج يقتل الحب ، وأن من الواجب
أن نسمح للمرأة بأن تفصل بين حياتها الزوجية وحياتها الجنسية ،
فهذا قول أقل ما يقال فيه انه يهدم نظام الأسرة من أساسه ،
وأنه يغلب مصلحة الفرد على مصلحة النوع . ولسنا نزعم أن

Cf. Havblock Ellis : "Psychology of Sex", 9 th. (١)

Ed. 1944, PP. 234 & 235 — 236.

المرأة هي مجرد خادمة للنوع ، ولكننا نعتقد أنه قد يكون من الخطأ أن نضحى بالطفل على مذبح الحرية الجنسية النسوية أما ما تقوله سيمون دي بوقوار من أن « الزواج » لا زال هو « المستقبل » الوحيد الذي ينتظر المرأة ، وأن علاج هذه الحال لا يكون إلا بمنح النساء حرية اقتصادية ، وجنسية ، تجعلهن على قدم المساواة مع الرجال ، فإنا نعتقد أن قبول مثل هذا الوضع قد يؤدي الى مشكلات اجتماعية أخرى ربما كانت أكثر خطورة من الحالة الراهنة نفسها . وحينما ينسى أصحاب هذا الرأي ما لدى المرأة من نزعات نرجسية ومازوشية ، فانهم يعبرون عن « نزعة عدوانية » تنأى بهم عن « الأنوثة » الكاملة . والا ، فكيف جاز لسيمون دي بوقوار أن تقول ان الزوجة تريد أن تشارك زوجها حياته الزوجية ، وأن تشترك معه في خلق عش سعيد ، وتربية أولاد صالحين ، ولكنها في الوقت نفسه تريد أن تتذوق ضروبا أخرى من العناق ؟ ! ألا تعرف هذه الكاتبة أن الطبيعة نفسها قد ربطت بين المتعة الجنسية والوظيفة التناسلية ، بحيث أن كل فصل يقام بينهما لا بد من أن يكون على حساب « الأمومة » وكرامة الحياة الزوجية نفسها ؟

ولكن ما هي الأسباب الحقيقية لثورة النساء على الحياة الزوجية ؟ اننا لو رجعنا الى ما يقوله دعاة حركة التحرير النسوى في العديد مساوىء الحياة الزوجية ، لوجدنا أن كل هذه الثورة هي مجرد تعبير عن صيق المراه بحياة المنزل وسخطها على تبعات الزوجية . وقد أسهبت سيمون دي بوقوار

في وصف ما تنطوي عليه هذه الحياة المسلة الشاقة من سأم ورتابة
و تفاهة ، كما أفاضت في الحديث عن انخفاض مستوى المرأة
العقلي والاجتماعي بسبب انحصارها في دائرة ضيقة لا تعدو
أعمال التوبير المنزلي والحياكة والطبخ والتعامل مع الأطفال
والخدم ! ونحن لا ننكر أن هذه الكاتبة هي على حق حينما تدعو
المرأة الى استبقاء صلتها بالعالم الخارجي ، وتوثيق عرى الصلات
بها وبين ما يدور في المجتمع من حركات فكرية وثقافية ، ولكننا
لا نفهم معنى لهذه الثورة الجامحة على نظام « الأسرة » ، في حين
أن أجمل ما تحلم به كل امرأة سوية لا تعرف الشذوذ هو أن
تكون أما صالحة . وحتى اذا لم نسلم مع بعض الباحثين
النفسانيين بأن معظم نشاط المرأة موجه في العادة نحو الداخل
(لا الخارج) ، فأننا لا بد من أن نعترف بأن حلم « البيت
السعيد » أو « العش انهانيء » هو حلم طبيعي يراود كل فتاة .
ونحن لا نعني بذلك أن يكون كل هم المرأة هو توديع زوجها
في الصباح ، وتمضية نهارها في السأم والانتظار ، أو في العمل
الشاق الرتيب ، وإنما نحن نعني أن كل عمل تنهض به المرأة في
الخارج لا يمكن أن يعوضها هناءة « البيت السعيد » . واذا كانت
مطالب الحياة الجمعية الحديثة قد اقتضت أن تنزل المرأة الى ميدان
العمل ، وأن تشترك مع الرجل على قدم المساواة في النهوض
بأعناء المجتمع ، فإن هذا النشاط الخارجي المحمود قد لا يشبع
حاجه المرأة الى الاستقرار المشهود . ولما بدرى الى ان حـ
يمكن أن تنجح المرأة في التوفيق بين الحافزين ، ولكننا نعتقد أن

هذا النجاح رهن بظروف كثيرة ، فضلا عن أنه مشروط بالطراز المعين الذى تنتسب اليه هذه المرأة أو تلك . وليس من شك فى أن هناك نساء « مسترجلات » يجدن لذة كبرى فى القيام بنشاط خارجى ، بينما يضعف لديهن الحافز النسوى الذى يملئ عليهن القيام بنشاط داخلى . ولكننا قد لانعدم لدى مثل هؤلاء النساء بعض الميول الأثوية التى تتجلى فى مناسبات معينة ، خصوصا حينما يطلب الى الواحدة منهن الاشراف على تربية طفل أو يتيم .

أما القول بأن المرأة تعيش فى هم مقيم ، وأن حياتها هى سلسلة من « الانتظارات » (Attentes) : اذ هى تنتظر الحب ، وتنتظر الزواج ، وتنتظر ولادة الطفل ، وتنتظر من الرجل أسباب حياتها ومبررات وجودها ، فهو فى نظرنا اغراق ليس له مبرر ، ومبالغة يراد بها تشويه صورة « الحياة الزوجية » . واذا كان « السأم » قد يسيطر على حياة المرأة ، فانه قد يسيطر أيضا على حياة الرجل ، لأن « الزمان » بما فيه من صيرورة ورتابة وتكرار ، هو الذى قد يجعل من « السأم » جزءا لا يتجزأ من صميم وجودنا البشرى . ولكن علينا وحدنا يتوقف القضاء على هذا السأم ؛ وهذا أمر تعرفه المرأة حق المعرفة ، فهى من ثم تحاول جاهدة أن تخلق فيما حولها جوا مناسبا من الجدة والتغيير والمفاجآت ! ولو كانت كل حياة المرأة - كما يزعم البعض - محصورة بين السعى من أجل الحصول على الزوج ، ثم العمل من بعد على استبقائه ، لكانت بالفعل جحيما لا يطاق ! ولكن

المرأة - لحسن الحظ - تعلم أن دورها في الحياة ليس سنيا إلى هذا الحد ، وهي تعرف أن وظيفة الأمومة قد لا تقل شأنًا عن أية مهمة أخرى ينهض بها الرجل ، ثم هي تؤمن في قرارة نفسها بأن مصيرها ليس بهذه القسوة التي قد يحلو للبعض أن يتصورها ! حقا انه قد يكون من الخطأ أن تفسر كل سلوك المرأة بالنظر إلى وظيفتها التناسلية ، فإن المرأة ليست مجرد « أنثى » ، وإنما هي أولا وبالذات « كائن بشري » ، ولكننا نعتقد أن ثورة بعض النساء على كلمة « أنثى » ، هي مجرد أثر من آثار تلك النظرة القديمة إلى الجنس ، وهي النظرة التي تجعل من الصلة بين الجنسين صلة « تفضيل » لا « تكميل » .

الفصل الخامس

المرأة في دور الأمومة

٣١ - اذا رجعنا الى التجارب الكثيرة التي قام باجرائها بعض علماء النفس على الحيوانات ، لمعرفة مدة قوة الدوافع لديها ، وجدنا أن « الأمومة » هي أقوى الدوافع الحيوانية عموماً . وقد استخدمت بعض الأجهزة العلمية الدقيقة لمعرفة ترتيب الدوافع (لدى الفئران) ، فوجد أن دافع الأمومة أقوى من العطش والجوع والحاجة الى الجنس وحب الاستطلاع . وليس من شك في أن دافع الأمومة الذي يربط الأم بصغارها منذ البداية ، هو دافع غريزي وثيق الصلة ببعض الحاجات العضوية والضرورات الفسيولوجية . وآية ذلك أن الأم تظل متعلقة بأبنائها طالما كانوا صغاراً ، وطالما كانوا في حاجة الى رعايتها . ولكن بمجرد ما يصبح الحيوان الصغير قادراً على الاستقلال عن أمه ، والنهوض بحاجاته الخاصة ، فإن دافع الأمومة سرعان ما يضعف ،

(١) ارجع الى كتاب « ميادين علم النفس » الجزء الاول ، دار المعارف ، سنة ١٩٥٥ (تحت اشراف الدكتور يوسف مراد) ص ٨٢ - ٨٣ .

لكى لا يلبث أن يزول تماما . وقد تختلف مظاهر « الأمومة » باختلاف الفصيلة التى ينتسب اليها الحيوان ، ولكن الملاحظ عموما أن دافع « الأمومة » عند الحيوان هو مجرد مظهر شرزى حيوانى يعبر عن عملية فسيولوجية محددة . وأما لدى الانسان ، فإن دافع « الأمومة » هو الى حد كبير عملية سيكولوجية ترتبط بالكثير من الأرجاع الانفعالية التى لا تخلو من تعقيد . وليس بين الدافعين من تشابه سوى أن كلا منهما فى خدمة الوظيفة التناسلية أو وظيفة التكاثر . ومع ذلك ، فإن تحول « غريزة » الأمومة الى « عاطفة » أو « حب » هو أمر قد لا نعدم له نظيرا - فى الظاهر على الأقل - لدى بعض الأنواع الحيوانية . ولعل هذا هو السر فى أن بعض الأفعال الغريزية التى يقوم بها الحيوان قد تتخذ « طابعا عاطفيا » يقربها الى حد ما من مظاهر السلوك الانسانى . ولكن مهما يكن من شئ ، فإن التجارب قد دلتنا على أن سلوك الأم - فى المجال الحيوانى - متوقف على بعض العمليات الهرمونية ، ولا زالت المحاولات تبذل - فى المجال الانسانى - لتحديد مثل هذه العلاقة بدقة لدى أنثى الانسان .

بيد أنه قد يكون من الصعب فى الوقت الحاضر أن نين الى أى حد يصدر ذلك الموقف الانسانى المعقد الذى نسميه

Cf. H. Deutsch ; "Psychology of Women" Vol. (1)
II., Ch. I., PP. 13 — 14.

بالأمومة (Motherliness) عن مجرد عامل بيولوجى محض .
حقا ان الأصل فى « الأمومة » هو بلا شك حالة فسيولوجية
خاصة ، ولكن من المؤكد أن هناك عوامل غير وراثية (ذات
طابع تعددى مرن) لم تلبث أن انضافت الى العامل البيولوجى ؛
وهكذا أصبح « حب الأم » مزيجا من عناصر بيولوجية ،
اجتماعية ، وحضارية ، كما عملت تجارب الأفراد عملها فى صميم
تلك « العاطفة » فاستحالت الى مركب وجدانى غاية فى التعقيد
وانه لمن الواضح أن تلك العلاقة الأولية التى تقوم بين « الأم »
و « طفلها » هى التى حدت بالبعض الى القول بأن أصل
« الأسرة » البشرية هو هذا « المجتمع » البيولوجى الصغير .
هذا الى أن العواطف الجمعية ، ومدى قدرة الفرد فى مجتمعنا
الحالى على التوافق الاجتماعى ، انما تتوقف على علاقة الطفل
الأولى بأمه . وحتى اذا نجح الباحثون يوما فى البرهنة على أن
« الأمومة » هى وليدة مجموعة من الشروط الهرمونية ،
والفسيولوجية ، والغريزية ، فان هذه الحقيقة لن تؤثر على
وجهة نظرنا السيكلوجية الى « الأمومة » . والواقع أننا هنا
بصدد ظاهرة انسانية معقدة : لأننا بازاء عمليات فسيولوجية
تقبل الملاحظة المباشرة ، وعمليات بيولوجية تخضع لقوانين
الوراثة والتكيف ، وعوامل أخرى عقلية ولا عقلية ، تاريخية
جمعية وسيكلوجية فردية... الخ . وكل هذه العناصر تشترك
جميعا فى تكوين تلك الظاهرة المعقدة التى سيكون علينا أن
نعمد الى اماطة اللثام عنها بالالتجاء الى التحليل النفسى .

لقد سبق لنا أن قلنا ان ما يميز « المرأة » المؤنثة هو وجود ضرب من الانسجام أو التوازن لديها بين الميول النرجسية والاستعدادات المازوشية . وليس من تعارض بين النزعة النرجسية لدى المرأة وبين عاطفة الأمومة ، لأن هذه النزعة سرعان ماتخضع لضرب من « التحويل » ، فتنتقل من « الأنا » الى « الطفل » (أو بديله) . ولكن يجب أن نلاحظ أنه على الرغم من هذا التحول الغيرى - أو الايثارى - فان العناصر النرجسية تظل قائمة ، لأنه كثيرا ما يرتبط حب الأم لطفلها بواقعة هامة هي أن الأم تعد نفسها لازمة لزوما ضروريا لحياة الطفل . وقد تضعف شدة الحب لدى الأم النرجسية ، حينما يصبح أبنائها في غير ما حاجة اليها . ولكن الملاحظ عادة أن الأم النرجسية كثيرا ما تضيق ذرعا بقسوة البيئة على أبنائها ، فضلا عن أنها كثيرا ما تطلب الى القدر أن يرفق بطفلها وأن يجنبه سائر العوائق العادية التي يصطدم بها الناس . وأما العناصر المازوشية في « الأمومة » فانها تتجلى على وجه الخصوص في استعداد الأم للتضحية بنفسها ، دون أن تنتظر عوضا أو مكافأة من جانب الطفل ، مع قبولها في الوقت نفسه لتحمل الآلام في سبيل العمل على راحة أبنائها . وربما كانت أهم صفة تميز الأمومة لدى الانسان هي أن حب الأم لطفلها لا يرتبط - عادة - (كما هو الحال لدى الحيوان) بالمرحلة التي يكون فيها الصغار محتاجين الى الأم ، وانما يظل مرتبطا بالطفل حتى بعد أن يكبر ويشب ويستقل عن أمه . وحينما

تحدث عادة عن « حنان » الأمومة ، فأننا نعنى أن حب الأم لطفلها يغطى على سائر العناصر العدوانية والجنسية التى ينطوى عليها الحب ، اذ تتحول الميول العدوانية الموجودة لدى الأم نحو « البيئة » التى يعيش فيها حتى تقوم بالدفاع عن طفلها ، كما تتسامى الميول الجنسية الموجودة لدى المرأة فتتخذ صورة العطف والرحمة ، أو قد تجد متسعاً لها فى ملاطفات الأم لوليدها ومظاهر اهتمامها به ورعايتها له .

٣٢ - وان « الأمومة » لتبدو لنا ظاهرة « نوعية » ذات أرجاع عاطفية خاصة ، فضلاً عن أنها تخضع لضرب من التطور خلال مراحل الحمل ، والحمل ، والوضع ، والرضاعة ... الخ وليس من شك فى أن هذه الظاهرة وثيقة الصلة بوظيفة المرأة التناسلية ، ولكن يجب أن نسى أن حياة المرأة السيكولوجية قد تكون أكثر تعقيداً من حياة الرجل ، لما فيها من ثنائيات متعددة وأقطاب لا حصر لها : فهناك الحياة والموت ، وهناك غريزة المحافظة على بقاء النفس وغريزة التناسل أو التكاثر ، وهناك الدافع الجنسى ودافع الأمومة ، فضلاً عن ضروب الصراع المختلفة بين الفاعلية والقابلية ، بين العدوان والمازوشية بين الذكورة والأنوثة ... الخ . ولا نرانا فى حاجة الى القول بأن ضروب الصراع المختلفة بين هذه القوى العديدة (التى يؤثر بعضها على البعض الآخر) هى التى تضيف على سيكولوجية الأمومة الشئ الكثير من العمق ، والخصب ، والثراء . وليس أدل على أهمية « الأمومة » فى حياة المرأة من قول شاعر

بولندي : « ان قلوب النساء لهي كخلايا النحل : ان لم يملأها
شهد المحبة وحنان الأمومة ، استحالت سريعا الى أوكار
للأفاعي ! » . ولكن هذا الشاعر قد نسي أن « الأمومة » لا يمكن
أن تزول تماما من قلب المرأة ، فقد لاحظت إحدى الباحثات في
دراساتها للعاهرات أنه قلما تخلو نفس « عاهرة » كائنة من
كانت من كل أثر من آثار الحنان أو العطف ، وقلما تكون مجردة
من كل عاطفة من عواطف الأمومة . حقا ان هناك نساء تطفئ
لديهن عاطفة « الأمومة » على كل حياتهن الوجدانية ، حتى
لتسقط الحواجز لديهن بين العواطف المرتبطة بالأمومة وسائر
العواطف الأخرى ، وبالتالي فقد تمتزج حياة المرأة الجنسية
بعاطفة الأمومة الكائنة لديها ، حتى لتصبح « أما » في سلوكها
نحو الرجل الذي تعاشره ؛ ولكن الرغبة الجنسية لا تسير دائما
جنباً الى جنب مع عاطفة الأمومة أو الرغبة في انجاب السل .
وكثيرا ما يحدث اصطدام بين نزعة المرأة العشقية (Eroticism)
وحاجتها الى الأمومة (Motherliness) ، فيتولد عن هذا
الاصطدام أو الصراع شعور عنيف بالاثم قد لا يخفف من
حدته سوى استعداد المرأة للتضحية بكل شيء !

والواقع أننا لو أنعمنا النظر في الصلات القائمة بين « الدافع
الجنسي » و « عاطفة الأمومة » ، لتبين لنا أن هذه الصلات
ذات طبيعة سيكولوجية معقدة ؛ وهذا التعقيد نفسه هو أكبر
دليل على أننا هنا بصدد ظاهرة تعدد النطاق الهرموني البحت .
حقا ان « الجنسية » Sexuality و « الأمومة » Motherliness

قد ترتبطان ارتباطا وثيقا قوامه التوافق والانسجام ، وإكتهما
قد تنفصلان انفصالا تاما (كما هو الحال لدى بعض
الحيوانات) . وكما أن هناك نساء يضعف لديهن الميل الجنسي
وعاطفة الأمومة ، فهناك نساء يجمعن الى قوة الميل الجنسي
شدة لا نظير لها في عاطفة الأمومة . وقد يحدث « الانشقاق »
بين الميل الجنسي وعاطفة الأمومة لدى المرأة ، فتميل جنسيا
نحو رجل ما ، أو تتمنى في قرارة نفسها أن يبدي هذا الرجل
نحوها رغبة جنسية ، مع اختيارها في الوقت نفسه لرجل آخر
تجبه وتخلص له باعتباره أبا لأبنائها . وأما المرأة المتكاملة
سيكولوجيا فانها تستطيع أن تشبع ميلها الجنسي ونزوعها نحو
الأمومة عن طريق رجل واحد يكون هو موضوع الحب
الجنسي ووسيلة تحقق الأمومة معا . وقد يتغلب أحد الدافعين
على الآخر ، فيسود أحدهما كل مظاهر الحياة الشعورية ، بينما
يبقى الآخر مطويا في خفايا اللاشعور الى أن تتاح للتحليل
فرصة الكشف عنه واعادته الى مجال الشعور . وقد وصف لنا
بلزاك مثل هذا الموقف في رواية أطلق عليها اسم « المراتين » ،
وفيها يروى لنا تجارب صديقتين تراسلان بانتظام ، والأولى
منهما « عاشقة » قد غلب الطابع الجنسي على سلوكها ، بينما
الثانية « أم » قد غلبت عاطفة الأمومة على كل تصرفاتها .
ولكن الأولى منهما تخفى في قرارة نفسها ميلا قويا نحو
الأمومة ، بينما الثانية تشعر بأن شيئا في الحياة لا يمكن أن
يعادل « الحب » ! والحق أن « الدافع الجنسي » و « عاطفة

الأمومة « هما واجهتا «العملة» في حياة المرأة السيكولوجية ،
فليس لها أن تستعيز عن الواحد منهما بالآخر ، بل لا بد لها
من أن تحاول الجمع بينهما .

وتذهب هيلين دويتش الى أن « حب الأم » ليس غريزة ،
بل هو عاطفة ، أو حالة وجدانية . فليس حب الأم مرتبطا
بالضرورة بالحمل ، وإنما قد يكون في استطاعة المرأة ان تبدى
« عاطفة الأمومة » نحو طفل قد تبنته ، أو نحو أبناء الزوج
الذين أنجبهم من فراش الزوجية الأول . وليس غريبا أن نجد
بين النساء من تتجه بحاجتها الطبيعية الى الأمومة نحو
موضوعات أخرى (غير أبنائها) ، فنراها تعطف على أبناء
الآخرين ، أو تبدى حنان الأمومة نحو طائفة من البالغين .
ومثل هؤلاء النساء قد يحترفن في العادة مهنا تسمح لهن
بالحصول على منافذ لارضاء تلك المشاعر العاطفية المرتبطة
بالأمومة . وحينما تتخلى المرأة عن مستقبلها ، فتقلع عن رغبتها
في الزواج وانجاب النسل ، لكى تعين غيرها من الأمهات ،
وتكرس نفسها لخدمة أبنائهن ، مضحية بكل مصالحها ومشاعرها
الأنانية ، فانها بذلك تتخذ لنفسها موقف « الأم الحزينة »
(Mater dolorosa) التى تحاول أن تشبع عاطفة الأمومة لديها
بطريقة شاذة منحرفة . وهناك حالات أخرى قد تعتمد فيها
النساء الى ارضاء حاجتهن الى الأمومة بطرق زائفة ملتوية نظرا
لشعورهن بالخوف من المعاشرات الجنسية . وفي مثل هذه
الحالات كثيرا ما يكون الدافع الى ذلك هو رغبة الفتاة فى أن

تصبح « أما » دون أن تدنس نفسها بأى اتصال جنسى « قدر » ! وقد روت احدى الباحثات أن بعضا من الفتيات اللائى يرغبن فى أن يصبحن « أمهات » ، مع خوفهن فى الوقت نفسه من « الرجل » ، وعدم رغبتهم فى الارتباط بنظام الزواج ، كثيرا ما يفكرن فى الاتصال برجل مجهول ، لمجرد تحقيق رغبتهم فى الأمومة ، دون الالتزام بأى تقييد اجتماعى أو أية واجبات زوجية ! وكل هذه الحالات الشاذة ان هى الا أمثلة مختلفة تدلنا على مدى أهمية « الأمومة » فى حياة المرأة ، على الرغم من مزاعم الكثيرات من دعاة الحرية النسوية ! وسنرى الى أى حد تحتل « الأمومة » مركزا كبيرا فى حياة الزوجة ، حتى حينما يقع فى ظنها أن حب الزوج قد يغنى عن نداء الطفل .

٣٣ - فاذا ما انتقلنا الآن الى دراسة العلاقة بين الاشباع الجنسى لدى المرأة وعملية الاخصاب ، وجدنا أن عددا غير قليل من الباحثين يميل الى القول بأن الاخصاب (Fecundation) لا يتم لدى المرأة الا اذا كان مقترنا باللذة الجنسية . ومعنى هذا أن المرأة « تحبل » فى فيض من « اللذة » أو « النشوة الجنسية » ، كما يقول كيش (Kisch) فى كتابه الموسوم باسم « الحياة الجنسية للمرأة » ، وهاقلوك اليس فى كتابه المسمى « سيكولوجية الجنس »^١ . بل ان البعض ليذهب الى حد

(١) Cf. H. Ellis "Psychology of Sex" 9 th Ed., 1944
P. 295.

أبعد من ذلك فيقول ان المرأة لتعرف ما اذا كانت قد حبلت أم لا ، بالاستناد الى نوع « اللذة » التى استطاع الرجل أن يمنحها اياها خلال عملية الاتصال الجنسى ! ولكن الرأى الحديث الذى يأخذ به اليوم معظم علماء الجنس هو أنه ليس ثمة علاقة مباشرة بين اللذة الجنسية وعملية الاخصاب . وخير دليل على ذلك هو أن ثمة أمهات أنجبن عددا غير قليل من الأبناء ، ولكنهن لم يعرفن يوما معنى « النشوة » الجنسية الحقيقية . وقد يكون الحائل أحيانا بين المرأة وبين الشعور باللذة الجنسية هو خوفها من الطفل ، أو عدم رغبتها فى انجاب أبناء آخرين .. وربما كان السبب فى ذلك هو أن المرأة تفهم أن الجماع والاخصاب مقترنان ، فهى ترى فى عملية الاتصال الجنسى بداية للموظيفة التناسلية التى تنتهى بولادة الطفل . وحينما تكون المرأة غير راغبة فى الطفل ، فإن عملية طرد الحيوانات المنوية من الرحم قد تتم بطريقة لاشعورية ، فيكون خوف المرأة من الحمل عاملا نفسيا هاما يستبعد الرجل والطفل (غير المرغوب فيه) من جسم المرأة . ولكن هذا لا يعنى أن البرود الجنسى والعقم يسيران دائما جنبا الى جنب .

وإذا كانت المشاكل المرتبطة بوظيفة « التكاثر » لدى المرأة مشاكل عديدة لا حصر لها ، فربما تكون مشكلة « لعقم » (Sterility) أخطرها جميعا وأولها بالعناية . وليس من شك فى أن للعقم أسبابا عضوية وهرمونية يمكن العمل على معالجتها بالأساليب الطبية الحديثة ، ولكن الملاحظ عادة أن العوامل

النفسية تسير جنباً الى جنب مع تلك العوامل العضوية . وقد يكون عجز المرأة عن انجاب النسل هو في الأصل وليد عوامل سيكولوجية تتسبب في حدوث اضطرابات تلحق بالعملية الفسيولوجية نفسها . وفي مثل هذه الحالات قد تعيننا النظرة الصائبة الى عمليات « الفعل الجنسي » على فهم الصعوبة النفسية التي تجدها المرأة في انجاب النسل . ولسنا نعنى بذلك أن مجرى العملية الجنسية هو نفسه المسئول عن عجز المرأة عن « الحمل » ، وانما نعنى أن الاتصال الجنسي نفسه قد يمدنا بمفتاح هام نستطيع به أن ننفذ الى صميم « شخصية » المرأة ، فنعرف طبيعة أرجاعها النفسية بالنسبة الى عملية « التناسل » . والواقع أن الصراع بين لذة المرأة الفردية ، وخدمتها للنوع باعتبارها أداة للتكاثر ، قد يبدأ في صميم العملية الجنسية نفسها . وهكذا نجد أن فكرة المرأة عن وظيفتها التناسلية قد تحتل كل شعورها في عنف وقوة ، فتؤثر على لذتها الجنسية ، أو قد تتخذ مخاوفها اللاشعورية المرتبطة بالتناسل صورة مؤثر « مانع » يحقق عملية « الكف » بطريقة غير مباشرة . وحينما تكون « اللذة الجنسية » هي المسيطرة على كل عملية « الجماع » ، فقد تبقى أفكار التكاثر أو « التناسل » مطوية ، ولكنها مع ذلك تعمل عملها بطريقة عكسية لاشعورية ، فتصبح هي نفسها مؤثراً نفسياً يتسبب في العقم .

وقد روى لنا بعض المحللين النفسيين أن المرأة قد تشعر بنشوة جنسية هائلة في الاتصال برجل لا تكن له سوى

الاحتقار والازدراء ! وفي مثل هذه الحالات الشاذة قد يعتمد اللاشعور الى معاقبة المرأة بأن يحرمها من تحقيق رغبتها الكامنة في انجاب النسل . وهنا يكون « العقم » بمثابة عتواف من جانب المرأة بأنه ليس من حقها أن تنجب طفلا من رجل لا تقدره ولا تحترمه . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن احساس المرأة اللاشعوري العميق بالذنب أو الاثم (Sense of Guilt) هو السبب في هذا « العقم » . والظاهر أن العامل النفسى الرئيسى في معظم حالات العقم هو الخوف اللاشعورى الناشئ عن الاحساس بالذنب . وآية ذلك أن المرأة قد تخشى « الحمل » اذا شعرت بأن زوجها ليس أهلا لأن يكون أباً ، أو اذا كان لديها من مخاوف الطفولة ما ارتبط بذكريات الحمل والوضع لدى أمها . وهناك نوع من « النساء » يظل محتفظا طوال حياته الزوجية بطابع « الطفولة » (سواء من الناحية الفسيولوجية أم من الناحية السيكلوجية) ، ومثل هذا النوع من النساء يظل فى حاجة الى شخصية يستند اليها (سواء أكانت هذه الشخصية هى الأم أم الأب أم الزوج) ، وبالتالي فان انعدام النضج الجسمى والنفسى لديه قد يحول دون الشعور بالحاجة الى الطفل . وقد تتحول كل عاطفة الأمومة لدى المرأة نحو زوجها ، خصوصا حينما تشعر بأن حب الزوج لها مرتبط بما لديها من حنان وأمومة ، ومن ثم فانها قد تتنازل عن رغبتها فى انجاب النسل ، فى سبيل المحافظة على زوجها والعمل على استبقاء حبه لها ، أو قد تشعر المرأة

بأن زوجها سينصرف عنها اذا ما هي أقدمت على الحمل ، أو اتجهت بعاطفتها نحو الطفل ، فتكون استجابتها اللاشعورية هي « العقم » . وفي مثل هذه الحالات لا تكون الحاحة الى الأمومة منعقدة لدى المرأة ، بل يكون « العقم » هو مجرد ظاهرة ثانوية تصحب عملية تكيفها أو توافقها مع زوجها . ومن هنا فقد يكون من الأهمية بمكان في بعض حالات العقم أن يعتمد المحلل النفسى الى دراسة نفسية الزوج والزوجة معا ، بدلا من الاقتصار على فحص الرجل طيبا لمعرفة ما اذا كان سلوك الحيوانات المنوية لديه عاديا أم غير عادى .

ومهما يكن من شئ ، فربما كان العامل الرئيسى فى « الحمل » (Conception) هو أن تشعر المرأة بالثقة والاطمئنان فى البيئة المعينة التى تعيش فيها ، وأن تطمئن فى الوقت نفسه الى قدرة زوجها على تحمل تبعات الأبوة . ولا شك أن تجربة « الحمل » (Pregnancy) تولد لدى المرأة ثنائية جديدة تشعر بها على شكل صراع خفى (عميقا كان أو سطحيا) بين قطبين مختلفين : قطب « الأنا » ، وقطب « الطفل » . ومهما كانت حالة المرأة النفسية جيدة ، فانها لا بد من أن تتصور قدوم الطفل باعتباره حدثا جديدا لا يخلو من ازعاج لحياتها الفردية ، مع شعورها فى الوقت نفسه بأنها هنا بصدد « أمل » مقبل لا يخلو من تجربة تفأولية . ولا شك أن انتظار المولود الأول هو فاتحة لتطور جديد يطرأ على حياة المرأة ، أو هو نقطة تحول هامة فى كل مستقبلها كأم . وليس أخطر على المرأة فى هذه المرحلة من

أن تشعر بأن زوجها ليس مستعدا لتحمل تبعات « الأبوة » ،
أو أنه ليس قادرا على أن يكفل لها أسباب الأمن والهدوء
والرعاية . وإذا كانت القوة الكبرى التي تعمل عملها في صميم
الحياة الانسانية هي « الخوف » ، فإن من الواجب أن نقيم
وزنا كبيرا لهذه القوة في حياة المرأة ابان الحمل ، بأن نعمل على
تحسين الظروف النفسية والاقتصادية والاجتماعية المحيطة
بالحامل ، حتى نضمن لها أسباب الثقة والاطمئنان والتكامل
والصحة النفسية ١ .

٣٤ - أما اذا عمدنا الآن الى دراسة حالة المرأة ابان أشهر
الحمل ، فاننا سنجد أن كل سيدة تبدى في هذه المرحلة بعض
العوامل العاطفية القديمة ، وبعض مظاهر الصراع النفسى
السابقة ، وهذه كلها سرعان ما تقترن لديها بشتى المظاهر
الجسمية الأخرى ، بحيث تصبح لكل امرأة في هذه المرحلة
مظاهر حمل خاصة جسديا ونفسيا معا . ولعل من هذا القبيل
مثلا ما نلاحظه من أن ظاهرة « الغثيان » (التى هى ظاهرة
عضوية محددة لدى الحامل) قد تقترن أحيانا بكل أحاسيس
« التقزز » التى ظلت مخترنة لدى الفتاة ابان الطفولة . دون
أن تملك التعبير عن نفسها فى الخارج . هذا الى أن تخيلات
الطفولة المتعلقة بتناول الأطعمة وارتشاف السوائل واختزان

Cf. H. Deutch : "Psychology of Women" Ch. V. (١)
P. 125 (Vol. II.).

المأكولات واخراج الفضلات وما الى ذلك من مظاهر جسمية ،
قد تقترن بالمظاهر البيولوجية المصاحبة للحمل . وقد لاحظ
بعض علماء التحليل النفسى أن المضمون السيكلوجى للتقيؤ
المشاهد لدى الحوامل هو بعينه نفس المضمون السيكلوجى
للتقيؤ الهستيرى المشاهد لدى الفتيات اللائى يتوهمن لاشعوريا
أنهن حوامل ! وليس من شك فى أن « الخوف » فى كلتا
الحالتين هو العامل الرئيسى : اذ أن ما تخشاه الفتاة هو
« النطفة » الموهومة ، وما تخشاه الحامل هو « النطفة »
الحقيقية . ولكن الخوف هنا مقترن بفكرة قديمة ترجع الى عهد
الطفولة ، وتلك هى فكرة « الاخصاب » عن طريق الفهم ! وقد
لوحظ بالفعل أن الحمل لدى النساء اللائى يتصفن بطابع
الطفولة ، كثيرا ما يختلط عليهن بأمراض الجهاز الهضمى ، حتى
أن مريضة من هذا النوع (فيما تروى احدى المحللات
النفسيات) كانت تفحص ما تتقيأه ، حتى ترى ما اذا كان
يحتوى على أجزاء من جسم الجنين أم لا ، على الرغم من
اعترافها بأنها كانت تعرف أن هذا الوسواس لا سند له من
عقل !

وربما كان فى استطاعتنا أن نقول ان معظم التقلبات العديدة
التي تطرأ على الجهاز الهضمى لدى المرأة أثناء الحمل هى فى
الوقت نفسه ظواهر سيكلوجية تقترن ببعض الذكريات
المكبوتة فى اللاشعور . واذا كانت أنثى الانسان هى من بين
جميع اناث المملكة الحيوانية أكثرها تعرضا لمثل هذه التقلبات ،

فذلك لأن الحمل يتخذ لديها صورة صراع حاد بين النوع
والفرد . وحتى حينما تكون المرأة على استعداد تام لتقبل
الطفل ، فإن جهازها العضوى لا بد من أن يشور بادیء ذى
بدء على المهمة التى يفرضها عليه النوع . وفى هذا يقول لعلامة
اشتیکل (Stekel) : « ان تقيؤ المرأة الحامل - فى الحالات
العصبية المصاحبة للحرص النفسى - يعبر دائماً عن رفض ما
للطفل ؛ وحينما يكون انتظار المرأة للطفل مصحوباً بشيء من
العداء - لأسباب قلما تدرى المرأة من أمرها شيئاً - فإن
اضطرابات المعدة لا بد من أن تتضاعف . » ومعنى هذا بعبارة
أخرى أن الاخراجات الجوفية تعبر عن اتصالات عدوانية بازاء
الحمل والجنين . واذا كان بعض علماء النفس يقرر ان الامساك
والاسهال لدى المرأة « الحامل » يتخذان معانى سيكولوجية
هامّة ، لأنهما يعبران عن الرغبة فى الاحتفاظ بالجنين أو
استبعاده ، فإن هذا القول يؤيد ما سبق لنا تقريره من أن
معظم الاضطرابات المعوية لدى المرأة هى وليدة ضرب من
الصراع الباطن بين الرغبة فى الاحتفاظ بالنطفة (كما تحتفظ
الأمعاء بالأطعمة) وبين الرغبة فى اخراجها (كما يستبعد الجهاز
الهضمى فضلات الأطعمة) . وعلى كل حال ، فقد لوحظ أن
الميل الى وقف الايقاع المنتظم للحمل لدى المرأة ، قلما ينعدم
لدى الحامل ، لأنه ظاهرة طبيعية نلقاها لدى السوية والشاذة
على السواء . ولكن هذا الميل لا يتعارض مع شعور « الأمومة »
الذى نجده بوضوح لدى كل امرأة : لأن المرأة والطفل يكونان

منذ البداية وحدة عضوية ، فضلا عن أن العمليات العضوية التي تتحكم في حاجات كل منهما واحدة منذ البداية . ولهذا فإن الاتحاد البيولوجي والفسولوجي الذي يتم بين الأم والطفل طوال مدة الحمل ، هو الأساس الذي ستقوم عليه « عاطفة الأمومة » باعتبارها حالة وجدانية . وليس من شك في أن علاقة الأم بالطفلة الموجودة في أحشائها لا زالت علاقة غامضة مختلطة ، ولكن هذه العلاقة مع ذلك هي الحجر الأساسي في بناء ذلك « الحب » العجيب الذي نطلق عليه اسم « حب الأمومة » .

٣٥ - أما إذا نظرنا الى علاقة الأم بالجنين ، فالتنا نلاحظ أن هذه العلاقة قد تتلون بلون العلاقة القديمة التي كانت قائمة بين الفتاة وأمها . وإذا كان من الحق أن علاقة البنت بأمها تلعب دورا هاما في معظم مراحل تطورها ، فإن من الحق أيضا أن هذه العلاقة تؤثر الى حد كبير في موقف الأم بازاء الجنين الراقد في بطنها . والسبب في ذلك هو أن كل مستقبل المرأة كأم إنما يتوقف على درجة تحررها السيكلولوجي ومدى قدرتها على الاستغناء عن أمها . حقا ان مرحلة الحمل - لدى « المرأة الطفلة » التي تعتمد في كل شيء على أمها - قد تسير سيرا عاديا لا أثر فيه للانحراف، أو الاضطراب ، ولكن قد يحدث أحيانا أن يتولد عن هذا الاعتماد الكلي على الأم (في نفس الحامل) رد فعل عنيف يعبر عن شعورها بأنها « هي الأم الآن ، لا والدتها » ! وفي هذه الحالة قد لا يكون الطفل أداة لتحرر

المرأة من أمها ، بل قد يزيد من خطر الموقف ، نظرا لتولد صراع في نفس المرأة بين اعتمادها على أمها وحاجتها اليها ، وبين ثورتها عليها ورغبتها في التحرر منها . وحينما يزيد هذا الصراع النفسى عن حده ، فقد يؤدي الى « سقط » (Miscarriage) أو قد يترتب عليه موت الطفل بعد ولادة سابقة لأوانها .

وليس أدل على أهمية العلاقة بين الطفلة وأمها في حياة المرأة ابان الحمل من قصة تلك المريضة التى روت احدى المحللات النفسيات أنها كانت آخر مولودة فى أسرة كبيرة ، ولكن والدتها كانت تنتظر مولودا ذكرا ، فلما وضعت هذه الطفلة لم تحسن استقبالها بل أهملتها وأبدت نحوها الكثير من عدم الاكتراث ، ولو أن الطفلة نفسها لم تقاس الكثير بسبب حب أبيها لها وعطف أختها الكبرى عليها . وحينما شبت تلك الطفلة ، وأصبحت فتاة ، لم يلبث شعور العداء أن ظهر لديها نحو أمها . ثم تزوجت تلك الفتاة ، ولم تلبث أن حبلت وأصبحت تنتظر مولودا . ولكن على الرغم من أنها كانت ترغب رغبة شديدة فى أن تنجب طفلا ، فان الكراهية التى كانت تكنها لأمها قد جعلتها تبغض أن تكون هى بدورها « أما » ، ومن ثم فانها لم تلبث أن وضعت قبل الأوان ، ولم يكن وليدها سوى طفل فاقد النطق عديم الحياة ! ثم حبلت تلك المرأة للمرة الثانية ، وكان أخشى ما تخشاه أن يحدث لها من جديد حادث من هذا القبيل ، ولكنها لحسن الحظ لم تلبث

أن عثرت على صديقة حميمة عرفتھا منذ الطفولة ، وهذه الصديقة نفسها كانت « حاملا » ! وبفضل هذه الصداقة ، استطاعت تلك المرأة أن تعمل على مقاومة مخاوفها ، خصوصا وأن أم صديقتها كانت والددة محبة عطوفة ، فوجدت في شخصها « الأم » الحنون التي طالما شعرت بالحاجة إليها ابان الطفولة . بيد أن الصديقة كانت « حاملا » في شهر متقدم عليها ، فكانت هذه المريضة تخشى أن تواصل حملها بمفردها . ولكن شاءت الظروف أن يتأخر تاريخ وضع صديقتها عن مواعده ، فظلت حبلی شهرا عاشرًا ، الى أن وضعت الصديقتان في يوم واحد ! وتوطدت الصداقة بين السيدتين ، فعزمتا على أن « تحبلا » في يوم واحد ، للمرة الثانية ، ولكن الصديقة لم تلبث أن تركت البلدة في الشهر الثالث ، لانتقال زوجها الى مدينة أخرى ، فكان على المريضة أن تواصل أشهر حملها بمفردها ! بيد أنه حينما عرفت تلك المريضة أنها ستكون بمفردها منذ الآن ، لم يلبث نزيف حاد أن استبد بها ، وهكذا وقع المحذور ، وحدث لها « سقط » آخر ، ولم تعد تستطيع بعد ذلك أن تنجب أطفالا ! والواقع أن ذكرى أمها كانت ترين عليها بشدة ، فلم يكن في استطاعتها أن تواصل حملها بسلام .

وقد تنمو في نفس المرأة ابان الحمل مشاعر الاثم ووساوس الخوف ، فتشعر بأنها ليست أهلا لأن تكون أما ، أو قد تظن أن « لعنة الأم » تلاحقها ، فتتوهم بأن طفلها مائت لا محالة ،

أو أنها سوف تدفع حياتها ثمنا لعصيانها وتمردھا ابان الطفولة ... الخ أو قد يكون هناك شبح امرأة أخرى سبق للزوج أن هجرھا وتخلی عنها ، فتظن الزوجة أن لعنة تلك المرأة تلاحقھا ، وأنها لا بد من أن تفقد جنينها بسبب تلك المرأة ! وحينما تكون المرأة قد مارست باسراف ابان الطفولة والمراهقة بعض العادات السرية ، فان المخاوف النفسية قد تستبد بھا ، اذ يخيل اليھا أن مولودھا لن يكون طبيعيا ، وأنها هي المسئولة عن كل خطر يمكن أن يتعرض له ، ومن ثم فانھا قد تجد نفسها عاجزة عن انتظار الطفل في شوق ولهفة وأمل . وقد يكون من الخطأ أحيانا أن نظن بأن « الحمل » الذي يتم في ظروف صحية حسنة هو بالضرورة دليل على « أمومة » سليمة : اذ قد لاحظ بعض الباحثين أن انعدام كل الأعراض المرضية أثناء الحمل قد يكون بمثابة انكار ضمني للأنوثة ، أو قد يكون بمثابة رد فعل ضد ما يقترن بالحمل من متاعب جسمية وأمارات ضعف . وفي مثل هذه الحالات قد يكون « الحمل السعيد » (Grossesse heureuse) بمثابة انكار ضمني للأمومة ، كما هو الحال مثلا لدى النساء المشتغلات ، أو لدى النساء ذوات النزعة العدوانية ، أو لدى بعض الأمهات من بين غير المتزوجات . أما لدى النساء « المتبرجات »^١ اللاتي لا يرين في أجسامهن سوى موضوعات للحب ، فان « الحمل » يتخذ صورة « نقص »

(١) « Les femmes Coquettes » (كما يظهر مثلا في كتاب « حياتي »

لايزادورا دنكان (I. Duncan)

يطراً عليهن ، فيشوه جمالهن ، ويقبح مظهرهن العام ، ويجعل
منهن مخلوقات « مسيخة » يستغلها النوع لخدمة أغراضه
الخاصة !

بيد أن هناك نساء — على العكس من ذلك — يشعرن إبان
الحمل بالسلام والهدوء والاطمئنان ، إذ يخيل الى الواحدة
منهن أن سبب وجودها كامن في جوفها ، وأن امتلاء بطنها هو
في الوقت نفسه امتلاء لحياتها . وهنا قد تجد « الحامل » اشباعاً
لرغباتها النرجسية القديمة ، فتتصرف بكل اهتمامها نحو تأمل
جسمها والعناية بنفسها ، دون أن تكثر بأى عمل آخر أو أية
مهمة أخرى . ولعل هذا هو الأصل في شعور بعض النساء إبان
الحمل بأنهن في شبه « اجازة » ، وأن المجتمع ثم يعد من حقه
أن يعهد اليهن القيام بأدنى عمل ! وهكذا ينمو لدى المرأة
الشعور بالأهمية ، إذ تشعر بأنها لم تعد مجرد « موضوع »
جنسى ، أو مجرد خادمة تنهض بأعباء البيت ، بل هى قد
أصبحت الآن حاملة لرسالة النوع ، وليس أجدر بالاحترام
والتقدير في نظر المجتمع من تلك الحياة الخصبة التى تفيض
بآمال المستقبل وأسباب بقاء النوع ! ونحن نعرف كيف أن
البيئة تحترم « الحامل » ، وتقدر أهواءها ، وتستجيب فوراً
لكل رغباتها ، حتى أن الحمل ليصبح أداة تستعين بها المرأة فى
تبرير أفعال ما كانت لتبدو عادة معقولة أو مقبولة ! أما فيما
يتعلق بالمرأة « الولود » التى قد تطلب الحمل لذاته ، فقد
لوحظ أن « الحمل » يمثل فى نظرها فترة انعكاف تحقق فيها

كل رغباتها الشعورية واللاشعورية ، دون أن يصحب هذا أى شعور باللاثم . والأم التى تطلب الحمل للحمل لا للطفل هى فى العادة شخصية منظوية تريد أن تتهرب من المسئوليات الحاضرة باسم المستقبل الذى تحمله فى جوفها ! وفى هذه الحالة كثيرا ما يتخذ « الوضع » صورة أليمة ، اذ يكون بمثابة « عود » الى عالم الواقع ، فلا تملك المرأة سوى أن تتقبل هذا الوضع فى مرارة وألم .

٣٦ واذا كانت فترة الحمل هى فى حياة المرأة فترة « الانتظار السعيد » ، فانها أيضا فترة الأوهام والأحلام والتخيلات . وهنا قد تتدخل تهاويل الطفولة ، فتتوهم المرأة انها تطوى بين أحشائها « بطلا » ، أو تسقط على « طفلها » المقبل صورة « مثلها الأعلى » ، أو توحى الى نفسها بأن المولود سيكون صورة مصغرة لوالدها ... الخ . وكما أن المرأة قد تظن أن وليدها سوف يجىء حاملا لشتى المواهب والصفات ، فانها قد تخشى أن تضع مخلوقا مسيخ الخلقة ، أو ناقص التكوين ، أو مصابا بأية عاهة من العاهات ! وقد تصبح هذه الفكرة بمثابة وسواس يحاصرها ويضيق عليها الخناق ، فلا تكف عن الرجوع الى الكتب الطبية ، واستشارة أهل رأى والخبرة ، خصوصا فى حالة ما اذا كان فى الأسرة شخص ذو عاهة ، أو طفل أعرج أو قريب أبله ... الخ . وعلى كل حال ، فان فترة الحمل هى مرحلة العواطف المتناقضة ، وهى الفترة التى تكثر فيها المخاوف النفسية ، سواء أكان مصدرها هو الشعور باللاثم ، أم وجود

بعض اضطرابات مازوشية في نفس المرأة تحول بينها وبين
ترقب الطفل بسرور ، أم تأثير بعض الرغبات القديمة المرتبطة
بالمحارم (Incest) . ولما كان الرجل هو الشريك الطبيعي
للمرأة في عملية انجاب النسل ، فإن كل ما يرتبط بالزوج من
حب أو كراهية سرعان ما يمتد الى شخصية الطفل ، فتستنزل
المرأة اللعنات على ذلك الوليد المسكين (مثلاً) لمجرد انه نتاج
اتصال جنسى تم في ظروف أليمة ، أو لمجرد أنها لم تستطع أن
تتخلص منه حتى تمحو آثار صلة غير مشروعة ... الخ . وحينما
يكون الطفل غير مرغوب فيه ، فإن من المؤكد أن الحمل لا بد
من أن يتخذ طابع « اللعنة » ، فيصبح الجنين بمثابة عبء ثقل
تنوء به المرأة .

واذا كان من الحق أن للطفل أهمية كبرى في حياة المرأة ،
نظراً لأن كل مقومات شخصية « الأنثى » تتركز في هذه
العلاقة الجوهرية بين الأم والطفل ، فإن من الحق أيضاً أن عاطفة
« الأمومة » قد توجد لدى نساء لم يجلن ، ولم يلدن ولم
ينجبن أطفالاً . وقد يكون من الخطأ أن تقول ان مثل هؤلاء
النسوة قد قمن بعملية « تسام » أو « اعلاء » لغريزة الأمومة ،
اذ الواقع أن حب الأم (مهما كان من صلتها بالغريزة) هو في
حد ذاته اعلاء أو تسام . والأدنى الى الصواب أن يقال ان
هؤلاء النسوة قد قمن بعملية « تبديل » أو « تحويل » اتجهن
فيها نحو موضوعات أخرى . وكلما كانت عاطفة الأمومة أقوى
لدى المرأة ، كانت قدرتها أعظم على تحويل ما لديها من حنان

وعطف نحو موضوعات أخرى أو نحو أطفال آخرين . ولهذا
فإننا قد لا نعدم بين النساء العقيمات « أمومة » قوية تتمثل
في استعدادهن للقيام بواجبات الأم نحو أطفال متبنين أو نحو
يتامى جديرين بالعطف . وإذا كان « التبنى » قد لا يشبع
حاجة بعض النساء الى « الأمومة » ، فذلك لأن المهم في نظر
المرأة النرجسية ليس هو « الطفل » ، بل صلة الرحم ؛ ورشتان
بين كلمة « الطفل » وكلمة « طفلى » في نظر هذا الضرب من
النساء ! . وحينما يكون الزوجان عاجزين عن انجاب نسل ،
فإن « الطفل » الذى لم يولد قد يصبح بمثابة طرف ثالث في
الأسرة ؛ وعندئذ قد يتساءل كل من الزوجين عن الشخص
المسئول منهما عن هذا « العقم » ؛ وحينما يكون الرجل هو
السبب في هذا العجز ، فقد يتعرض لسخط الزوجة وعدوانها ،
أو قد تتحول الحياة الزوجية الى جحيم لا يطاق بسبب شعور
المرأة بنقص في « رجولة » زوجها . وحتى حينما لا يكون عقم
الزوج مرتبطا بنقص في رجولته ، فإن حرمان الأم من الطفل
قد يدفعها الى التمرد على زوجها ، اللهم الا اذا اتجهت الزوجة
بكل عطفها وحنانها نحو زوجها نفسه ، باعتباره بديلا للطفل !
أما حينما يكون عقم المرأة ناتجا من عملية اجهاض ارتضاها
الزوج في بادىء حياته الزوجية (أو قبلها) للتخلص من الطفل
أو من مأزق حرج ، فهناك يكون عداء المرأة ضد الرجل عنيفا
عارما ، اذ تشعر بأنه هو المسئول عن تحطيم كل حياتها الزوجية .

٣٧ - وليس من شك في أن « الاجهاض » (Abortion)

مشكلة اجتماعية خطيرة ، لأنها ترتبط بمشاكل تحديد النسل ، ومدى حق المرأة في قبول « الأمومة » أو رفضها . ولستأ نريد أن نقطع في هذه المشكلة برأى حاسم ، ولكن حسبنا أن نقول ان الأخطار المترتبة على « الأمومة » القسرية ، قد تكون أقسى على الانسانية من الأخطار الناجمة عن استبعاد « نطفة » من بطن الأم . وقد ذهب بعض الأطباء (مثل الدكتور هرشفلد M. Hirschfeld) الى أن « الاجهاض الذى يقوم به طبيب متخصص فى عيادة طبية ، مع استعمال الأساليب الوقائية اللازمة ، لا ينطوى على تلك الأخطار الجسيمة التى يشير اليها القانون الجنائى . » هذا الى أنه على الرغم من أن الاجهاض ممنوع قانونا فى كثير من البلاد ، فان عدد النساء اللائى يتعرضن لهذا الخطر كل عام يفوق الحصر ، خصوصا وأن سرية العملية قد تضطرهن الى الالتجاء لبعض المحترفات الجاهلات ! وليس أدل على ذلك من أن الاحصائيات فى بلد مثل فرنسا دللتنا على أن عدد حالات الاجهاض فى سنة ١٩٣٣ قد بلغ ٥٠٠٠٠٠ حالة ، وفى سنة ١٩٣٨ حوالى مليون ! ، وفى سنة ١٩٤١ حوالى ٨٠٠٠٠٠ ؛ حتى أن عدد حالات الاجهاض ليكاد يعادل عدد المواليد ! ولئن كانت الحالة عندنا لم تبلغ بعد هذه الدرجة من الخطورة ، نظرا لاقبالنا الشديد على النسل ، وعدم اهتمامنا بمستوى المعيشة الذى نكفله لأبنائنا ، الا أننا لا نعدم حالات اجهاض بين سائر الطبقات فى مصر . ولا شك أن ردود أفعال المرأة ضد الاجهاض تتوقف

الى حد كبير على الدوافع التي حملتها على اتخاذ هذا المسلك .
ولكن من المؤكد في معظم الحالات أن ما يستتبع هذه العملية ،
هو الشعور الحاد بالاثم ، والاحساس القوي بتأنيب الضمير .
ومهما حاولت المرأة أن تقوم بتبرير عقلى لفعلتها ، فانها لن
تستطيع أن تتقبل الأمر بواقعية صرفة أو عدم اكتراث تام .
ولا يرجع هذا الشعور الى التربية الدينية التي تصور لنا
استبعاد النطفة بصورة قتل النفس فحسب ، وانما يرجع هذا
الشعور أيضا الى احساس المرأة بالخلاء أو « الخواء »
(Vacuum) بعد اقدامها على عملية الاجهاض ، مما يتوولد عنه
أسفها على التضحية ، وجزعها للتغير الذي طرأ عليها ، وسخطها
على زوحها (أو عشيقها) الذي دفعها الى اتخاذ هذا المسلك .
ولكن مهما كان من أمر القوانين والشرائع ، فان تحريم
الاجهاض كثيرا ما يزيد من تعقيد الموقف . ولا نرانا في حاجة
الى القول بأن الرأي العام كثيرا ما ينتصر لحق المرأة في تقبل
الأمومة أو رفضها بالأساليب التي ترضيها . واذا كانت المرأة
قد لا تأنس من نفسها استعدادا لانجاب الطفل والقيام برعايته
والعمل على تربيته ، فبأى حق يفرض عليها المجتمع الاضطلاع
بهذه المهمة ، خصوصا وهو يعلم أن رفض المرأة للأمومة هو
تضحية كبرى لا يمكن أن تقدم عليها الا عند الضرورة
القصوى ؟ أما الزعم بأن استبعاد النطفة هو قتل للنفس ، فان
أقل ما يمكن أن يقال في الرد عليه هو أنه من الخير للكثير من
المحتمعات أن تستبعد نطف قليات (أو كثيرات) من ان تكثر

حوادث القتل والاجرام وهتك الأعراض وما الى ذلك من جرائم خطيرة هي وليدة التربية السيئة ، والعجز عن تنشئة الأطفال ، وانجاب النسل للقاء به في الشوارع والطرقات ! ولن نستطيع في هذا المقام أن نعرض لدراسة مشكلة « تحديد النسل » ، ولكن حسبنا أن نقول ان الوظيفة التناسلية لا يجب أن تترك للصدفة البيولوجية المحضة ، بل يجب أن تتحكم ارادة الأفراد في انجاب النسل . وقد أصبحت الآن طرق « تحديد النسل » في بعض البلاد أساليب مشروعة تلتجئ اليها النساء للاستغناء عن عملية « الاجهاض » ، وأصبحت « الأمومة » مهمة حرة تنهض بها المرأة كلما أنست من نفسها قدرة واستعدادا . وصفوة القول ان لكل امرأة الحق في أن تصبح « أما » أو أن تتخلى عن أمومتها ، بحسب ما تقضى به ظروفها الخاصة ، وبالأساليب المعينة التي ترضيها لنفسها^١ .

وليس من شك في أن المرأة حينما تتقبل الأمومة ، فانها تمر بتجربة هامة تتوثق فيها العلاقات بين ذاتها وذات الجنين الذي تحمله ، وذلك لأن من شأن « الحمل » أن يرفع الحواجز بين « الأنا » و « الأنت » . ولكن الطفل لا بد من أن يستحيل شيئا فشيئا الى « موضوع » ، حتى لا يتخذ « الوضع » صورة انقصال أليم لجزء من « الأنا » ، أو حالة فقدان

Cf. H. Deutsch : "Psychology of Women.", Vol. (١)
II., 1945, P. 179.

سيكولوجي يتحطم معها جزء من بنية الشخصية . والواقع أن آليات « الدفاع » لدى الحامل ، تنزع منذ البداية نحو جعل « الطفل » موضوعا أو شيئا خارجيا ، حتى تنصرف المرأة الى الاهتمام به والاستعداد لاستقباله . ومن هنا فان أشهر الحمل مرتبطة بنشاط تقوم به المرأة في عالم الواقع للعمل على تهيئة أسباب الراحة والرعاية لوليدها المقبل . ومع ذلك ، فان « الوضع » (Delivery) لا بد من أن يتخذ صورة « تجربة انفصالية » يخرج فيها من بطن الأم ذلك الكنز الثمين الذي كانت تخبئه بحرص في أعماق أعماقها ! وبمجرد ما تنقسم عرى الاتحاد بين الأم وطفلها ، فسرعان ما تظهر لديها نزعتان متعارضتان : نزعة تقديمية تحدوها الى مساعدة ذاتها على استعادة حقوقها ، ونزعة ارتدادية تدفعها الى الاتحاد بطفلها ، وتوثيق عرى ذلك « الحبل السرى » السيكولوجي الذي يربط بينهما ! ولعل هذا هو السر في نشأة صراع حاد لدى المرأة بين مطالب الذات ووظائف النوع ، لولا أن « حب الأم » سرعان ما يوفق بينهما ، فيكون بمثابة الجسر الذي يربط الفرد بالنوع .

٣٨ - ولسنا نريد أن تفيض في شرح الحالات النفسية السابقة للوضع والمصاحبة له والناجمة عنه ، فذلك مما قد يضيق به المقام ، ولكن حسبنا أن نشير الى أن كل مخاوف الطفولة لا بد من أن تعود الى الظهور في كل هذه المرحلة . وسواء أكان موقف المرأة قبل الوضع هو موقف اللهفة

الممزوجة بالفضول وحب الاستطلاع ، أم موقف الخوف الشديد المقترن بالجزع من الموت ، أم موقف التردد المستمر بين مشاعر التفاؤل ومخاوف التشاؤم ، فإن من المؤكد أن كل ماضى الشخصية بما اختلف عليها من أحداث ، هو الذى يفصل فى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل حياة الأم . والواقع أن عملية « الوضع » ليست مجرد عملية جسمية (Somatic) ، بل هى عملية « سيكو - سوماتية » (أى جسمية ونفسية معا) .

وحيثما تكون الشخصية بازاء تجربة خطيرة ، فإنها سرعان ما تحشد كل آلياتها وامكانياتها لمواجهة مثل هذا الموقف . واذن فليس بدعا أن نجد كل تجارب المرأة المرتبطة بالطفولة والمراهقة ، وعلاقتها بأمها ، ونوع صلاتها بزوجها ، وطبيعة موقفها من الطفل ابان الحمل ، نقول انه ليس بدعا أن تتركز كل هذه التجارب فى صميم عملية « الوضع » لكن تسهل الولادة أو تعوقها ، ولكى تجعل دور المرأة أثناء الوضع سلبيا محضا أو ايجابيا فعالا . واذا كانت عملية الوضع قد لا تستغرق سوى ثلاث ساعات أو قد تدوم يوما بأكمله ، فذلك لأن موقف المرأة من العملية يختلف باختلاف طبيعتها النفسية وحالتها العامة . وبينما نجد أن المرأة المسترجلة قد تشارك مشاركة فعلية ايجابية فى تسهيل عملية الوضع ، نرى أن المرأة الطفلة تقف من هذه العملية موقفا سلبيا محضا ، تاركة للطبيب أو المولد أن يتصرف بمفرده . وليس من شك فى أن للصلة القائمة بين المرأة والطبيب (أو المولد) أهمية كبرى ، لأنها قد

تساعد المرأة على طرد المخاوف من نفسها أو قد تجعلها تعتمد عليه اعتمادا كليا باعتباره « بديلا » للأب (أو للأم) . وان الصراع ليظهر حادا أثناء الوضع بين مصلحة الفرد ومصلحة النوع : اذ قد يتعين على الطبيب أحيانا أن يضحي بحياة الواحد منهما في سبيل الآخر ، ولكن مخاطر الولادة قد قلت أو كادت تنعدم بعد التقدم الكبير الذى أحرزه الطب الحديث . وقد اختلفت آراء الأطباء بصدد « الولادة بدون ألم » ، فذهب البعض الى ضرورة تخفيف آلام المرأة أثناء الوضع ، بينما ذهب البعض الآخر الى أن « الألم » عنصر ضرورى فى تجربة « الولادة » ، وأن المرأة تريد فى قرارة نفسها أن تشارك فى صميم هذه التجربة ، عاملة على محاربة الألم بأساليبها الخاصة . ولكن على الرغم من ضرورة الأخذ بيد المرأة أثناء الوضع ، فقد يكون من الخطأ أن نجعل موقفها سلبيا محضا من هذه العملية الابداعية . والواقع أنه لا بد من أن تترن عملية « الوضع » بشيء من الشعور والمشاركة الفعالة من جانب المرأة ، والا فان استقبالها للطفل سيكون بمثابة استقبال لكائن غريب لم تساهم هى ايجابيا فى خلقه ! وآية ذلك أن المرأة التى تفقد وعيها أثناء الوضع ، قد تسلك سلوكا شاذا بازاء طفلها بعد استرجاعها لوعيها ، أو قد لا تشعر بأى سرور أو عاطفة عند تقديم المولود الجديد اليها . واذن فان مشاركة الأم فى عملية الوضع هى التى تخلع على هذه العملية طابع « الخلق » أو « الابداع » ، وهى التى تجعل من « الطفل »

ثمرة حقيقية لجهد خالق أو ابداعي . وإذا كانت « أبوة » الرجل هي بطبيعتها « غير أكيدة » (Pater incertus est.) ، فإن الطرق الحديثة في الولادة قد جعلت موقف « الأمومة » من الطفل شبيها بموقف « الأبوة » إذ أصبحنا نجد الأم التي تسترد وعيها بعد عملية الوضع لا تلبث أن تبدى دهشتها قائلة : « أهذا هو طفلي ؟ » . ومهما يكن من شيء ، فإن من المؤكد أن خبرة الأم المكتسبة أثناء الولادة هي الحجر الأساسي في مستقبل الطفل النفسي .

فإذا ما انتقلنا أخيرا الى مرحلة « الرضاعة » ، وجدنا أن هذه المهمة التي تقع على عاتق الأم هي الوظيفة الأصلية التي توثق العلاقة بينها وبين الطفل . وهنا قد تجد المرأة في « الطفل » معادلا للقضييب ، أو قد تنظر اليه على أنه حلقة الاتصال بينها وبين الواقع الخارجي ، أو قد تجد نفسها بازاء مخلوق تحبه ولكنها تشعر بالوحدة أثناء وجودها معه نظرا لعدم قدرته على الاستجابة . وكثيرا ما تلعب ذكريات الطفولة دورها في هذه المرحلة أيضا ، فيكون لنوع العلاقة التي كانت قائمة بين الطفلة وأُمها تأثير كبير على حالتها النفسية . وقد روت إحدى الباحثات أن أما صغيرة السن كانت تجد نفسها عاجزة عن ارضاع الطفل كلما قدمت أمها لزيارتها ! وقد تشعر الأم بعد الوضع بأن جسمها قد فقد شيئا غير قليل من جماله ورشايقته ، فتظهر لديها حالة صراع بين عاطفة الأمومة وعاطفة العشق الذاتى أو النرجسية . وقد يؤدي هذا الصراع الى عودة الأم الى مرحلة

قديمة سابقة على مراحل الحمل والولادة . حقا ان الأم في كل هذه الأثناء تحاول أن تبقى على الوحدة القائمة بينها وبين طفلها ، ولكنها قد تشعر بالكثير من المخاوف لعجزها عن القيام بكل مهام الأمومة أو لعدم ثقتها في قدرتها على تزويد الطفل بالقدر اللازم من العطف والرعاية . وهكذا قد ينشأ لديها الخوف من فقدان الطفل ، فتشعر بحاجتها الى « بديل » للأم . وعلى كل حال ، فان مصير الأمومة في هذه المرحلة انما يتوقف على هذا الصراع القائم في نفس الأم بين تلك النوازع المتعارضة . ولكن ربما كان من الضروري في هذه الفترة أن تترك الأم ووليدها ، في شبه عزلة أو انعكاف ، حتى يتسنى لها أن تسيطر على الموقف بأساليبها الخاصة .

الفصل السادس

المرأة في سن اليأس

٣٩ - قد يعجب القارىء حينما يجدنا ننتقل - في طفرة واحدة - من « دور الأمومة » الى « سن اليأس » . ولكن يجب أن نلاحظ أن « الأمومة » ليست مجرد « مرحلة » من مراحل تطور المرأة ، وانما هي الوظيفة الرئيسية التي تتركز حولها كل حياة المرأة منذ الطفولة حتى الشيخوخة . ولست « الأمومة » بالنسبة الى المرأة مجرد غريزة حيوانية ، وانما هي عاطفة خصبة « تستمد منها معظم مظاهر النشاط النسوى قوتها الدافعة وطاقتها الابداعية » . حقا ان الأمومة تنطوى على عمليات صراع مختلفة تتم في نفس المرأة بين مطالب الذات وخدمة النوع ، بين ميل الأم الى المحافظة على الوحدة التي تربطها بالطفل ونزوع الطفل الى الاستقلال والتحرر ، بين الحب والعداء ، فضلا عن اقترانها بالكثير من مظاهر الصراع الشخصى والعصابى ؛ ولكن من المؤكد أن كل مصير المرأة انما يتوقف على مدى قدرتها على تحقيق تكاملها النفسى من خلال هذه العمليات نفسها . فليست الأمومة مجرد حمل تنوء

به المرأة ، بل هي أدواتها الى تحقيق تكاملها النفسى ، وهى وسيلتها الى اكتساب « الاتزان » اللازم لبلوغ السعادة وعلى الرغم مما يكتنف الأمومة من مصاعب ومشكلات ، فانها تعبر عن تلك « التجربة » الخصبة التى تستطيع المرأة من خلالها أن تحقق رسالتها ، وأن تجد لذة كبرى فى الوفاء بمطالب مصيرها البيولوجى . وحينما تشعر المرأة بأنها قد نهضت بهذه المهمة على الوجه الأكمل ، وأنها قد نجحت فى أن تحقق توازن أسرتها ، وأنها قد استطاعت أن تكفل لأبنائها ما هم فى حاجة اليه من معونة وجدانية واجتماعية ، فانها عندئذ قد لا تجد حرجا فى أن تتقبل باتزان وتعقل تلك الأحداث البيولوجية الهامة التى تعرض لها باقتراب « سن اليأس » (Ménopause) - وهى السن التى يؤذن بانتهاء خدمتها

للنوع .

وقد اختلفت آراء الباحثين فيما يتعلق بأعراض هذه المرحلة ، فذهب البعض الى أن لهذه المرحلة أهمية كبرى فى حياة المرأة نظرا لما قد يصاحبها من اضطرابات نفسية خطيرة ، بينما ذهب البعض الآخر الى أن الأعراض النفسية المصاحبة لهذا التحول الفسيولوجى ليست بذات بال . ونحن نعرف أن ما يميز هذه المرحلة فسيولوجيا هو انقطاع الحيض ، وتوقف تكوين البويضات ، وضمور الأعضاء التناسلية ، وظهور أعراض الشيخوخة على باقى أجزاء الجسم . واذا كان البعض قد أطلق على هذه الفترة من حياة المرأة اسم « المرحلة الحرجة »

(Critical Period) ، فذلك لأن للتغيرات الهرمونية التي تطرأ على جسم المرأة آثاراً سيكولوجية تعبر عن أرجاع الأنثى بازاء هذا الانحدار الجسمي أو الانحلال العضوي الذي تتعرض له فيما بين سن ٤٥ و ٥٠ عادة . — ولسنا نريد أن نسهب في وصف هذا الانحلال ، ولكن حسبنا أن نقول ان لسن اليأس مرحلة تمهيدية (تشبه مرحلة ما قبل البلوغ بالنسبة الى دور المراهقة) ، وهذه المرحلة تتميز بحدوث اضطرابات في العادة الشهرية تجيء مصحوبة ببعض حالات الأرق والحصر النفسي وسرعة التهيج والهبوط النفسي . والظاهر أن المرأة في هذه المرحلة تدرك العمليات البيولوجية الباطنة ، قبل أن تظن الى التغيرات العضوية الخارجية . وهذه الأمانة الباطنة سرعان ما تقترن بادراك العلامات الأولى للشيخوخة ، فيترتب عليها تزايد اهتمام المرأة بشخصها . وهكذا ينشأ لدى المرأة ضرب من الصراع في سبيل المحافظة على أنوثتها ، حتى قبل أن يطرأ أى توقف على جهازها التناسلي . وتبعاً لذلك فان نشاط المرأة سرعان ما يتضاءل ، وقد يتجه هذا النشاط نحو المراكز المهددة بالذات ، فترى المرأة تشعر برغبة حادة في أن تحبل وتعاود تجربة الأمومة التي سبق لها أن تخلت عنها منذ سنوات طويلة ! وعلى الرغم من كثرة مشاغل المرأة ، وتعدد واجباتها في البيت أو خارجه ، بل على الرغم من استغراقها في مشاكل أبنائها البالغين ، فانها قد تنجب في هذه الفترة السابقة على

سن اليأس طفلا أو طفلين ، وكأن لسان حالها يقول : « لنفتنم
الفرصة قبل أن توصل الأبواب ! »
أما بالنسبة الى النساء اللاتي كن منشغلات بوظيفة التناسل،
منصرفات الى تربية الأولاد والعناية بهم ، فإن التعطش الى
العمل يتخذ صورة أخرى ، فترى المرأة المقبلة على سن اليأس
تتجه نحو مشاغل خارجية تخرج بها عن نطاق البيت ، أو قد
تعاود الاهتمام بهوايات قديمة كانت قد تخلت عنها قبل الزواج .
وقد يحدث أحيانا أن تفتن المرأة الى ميول قديمة كانت قد
اتجهت نحوها في الفترة السابقة على البلوغ ، فنراها تحاول
أن تستعيد ذكرى تلك الميول القديمة ، بأن تعتمد - مثلا -
الى عزف مقطوعات موسيقية أو رسم لوحات فنية ... الخ .
والواقع أن الفترة السابقة على سن اليأس كثيرا ما تقرر
لدى المرأة بتجدد الرغبة في الخلق أو الابداع الفني ، خصوصا
وقد أصبح لدى المرأة - بعد نضج أبنائها واستقلالهم عنها -
متسع من الوقت للتفكير في تلك التجارب الفنية التي لم تتركها
عند الزواج الا على مضض ! وما دام « الحبل السرى »
السيكولوجي الذي كان يربط الأم بالطفل قد انقطع ، فلم
يعد هناك ما يحول بينها وبين الانصراف الى « الخلق الفني »
الذي هو بمثابة تعويض عن « وظيفة التناسل » . وكأن لسان
حال المرأة هنا يقول : « اذا لم يعد في وسعي الآن أن أنجب
أطفالا ، فلا أقل من أن أبحث عن شيء آخر ! » وليس من
شك في أن نشاط المرأة في هذه الفترة انما هو بمثابة آلية من

آليات الدفاع ، تحاول بمقتضاها أن تستجيب لذلك « الموت الجزئى » الذى يتهدها باعتبارها خادمة للنوع . وحينما تشعر المرأة بأنها قد أصبحت على أبواب الشيخوخة - والشيخوخة أصيل الحياة - فانها سرعان ما تجد نفسها مضطرة الى محاربة هذا الانحدار بقوة ونشاط . فليس التعطش الى العمل هنا الا بمثابة تعبير عن صراع المرأة ضد الانحلال . هذا الى أن اقتراب سن اليأس قد يولد لدى المرأة شيئاً من « الثورة » أو « التمرد » ، فراها تحاول أن تؤكد بنشاطها أنها ليست مجرد خادمة للنوع ، أو مجرد آلة تنتج أطفالاً ، وانما هى شخصية حرة تملك نشاطاً عقلياً وحياة وجدانية ، وبالتالي فان « الأمومة » ليست هى وظيفتها الوحيدة فى الحياة ! وقد تنجح المرأة عن هذا الطريق فى أن تجد مخرجاً من كل تلك التعقيدات البيولوجية التى تطرأ عليها فى هذه المرحلة الحرجة من مراحل حياتها .

٤٠ - يبد أن التغيرات المصاحبة لسن اليأس سرعان ما تعرف طريقها الى المرأة ، فينقطع الحيض تماماً ، ولا تعود أكياس دى جراف تتفتح ، ولا تعود أغشية الرحم المخاطية تتجدد ، ثم لا يلبث المبيض أن يكتسب طابع نسيج صلب ملتحم . وهكذا ينتهى الأمر بجهاز المرأة التناسلى الى أن يصبح عبارة عن مجموعة من « البنايات » الزائدة عن الحاجة ، أو التى لا تقوم بأية وظيفة فعالة . وهناك تغيرات أخرى مماثلة تطرأ على الأعضاء الغددية ، فتزداد طبقات الشحم تحت الجلد ، وينمو

الشعر بغزارة (خصوصا فوق الشفتين ، وعلى الخدين . وفي
الأجزاء المحيطة بالبطن) . وليست دلالة هذه التغيرات التي
تطرأ على المرأة في سن اليأس بقاصرة على توقف الانتاج
الфизиولوجي ، وانما هي تشير أيضا الى وجود انحلال عام .
وهكذا تفقد المرأة شيئا فشيئا كل ما كانت قد اكتسبته أثناء
المراهقة ، لكى لا يلبث جمالها أن يتبدد ، فتزول معه حرارة
الشباب ، ودفء العاطفة ، ومظاهر الأنوثة الحيوية .
وهنا قد يتغير سلوك المرأة ، فنراها تحاول أن تثبت في
عناد أنها لازالت شابة ، وأن كل ما طرأ عليها من تغير لم يستطع
أن ينفذ الى صميم حياتها الجنسية ! واذا كان البعض قد سمى
سن اليأس باسم « العهد الخطير » ، فذلك لأن المرأة فيه قد
تصبح مدعاة للسخرية ، خصاصا حينما تأبى أن تعترف بالأمر
الواقع ، فتحاول أن تقلد الفتيات في سن المراهقة ، كما يبدو
بوضوح من سلوك هذا النوع من « النساء » المسنات اللائى
دأب أصحاب « الفن الهزلى » على السخرية منهن بقسوة على
خشبة المسرح . ولعل من هذا القبيل مثلا ما قد تلتجئ اليه
بعض النساء في هذه الفترة من ارتداء الأزياء الشابة ذات
الألوان الصارخة ، أو الاقدام على بعض التجارب الغنية
الخصبة ، أو اتخاذ مسلك الفتيات الصغيرات عموما (كتابة
المذكرات - الاهتمام بالأفكار المجردة - التعلق بالمثل العليا
الخيالية - اتخاذ موقف جديد من الأسرة ... الخ) . وقد تجد
المرأة لذة كبرى في أن تلتجئ الى الطرق الحديثة في علم النفس

من أجل مقاومة الشيخوخة ، فتعزى نفسها بقولها « ان والدتي
في مثل سنى كانت عجوزا طاعنة فى السن ! » . وحينما يزداد
شعورها بالنرجسية ، فانها قد تسرف فى استعمال الأصباغ
والمساحيق وشتى وسائل الزينة ، حتى تتعرف فى المرأة على
وجه تلك « الشابة الجميلة » التى افتقدتها الى غير ما رجعة !
وقد تضطرها الرغبة فى الاستماع الى كلمات المديح والثناء ،
وعبارات الاعجاب والتقدير ، الى البحث عن أناس هم دون
مركزها بكثير ، ولكنها تجد لديهم ما قد يضمن به عارفوها من
اعجاب واستحسان ! وكثيرا ما تتغير نظرة المرأة فى هذه الفترة
الى زوجها ، فيخيل اليها فجأة أنه لم يكن جديرا بها ، وأن
قبولها للزواج منه لم يكن سوى خطأ فاحش ! وهكذا قد
تعود المرأة بذاكرتها الى ما قبل الزواج ، فتحاول أن تستعيد
صورة ذلك الشاب الوسيم الذى بادلها الغرام يوما ، أو تعتمد
الى تصور حالها اليوم لو أنها قبلت الزواج من ذلك
« المجهول » الذى التقت به عرضا فى احدى الحفلات ... الخ .
وان الحدود لتكاد تمحى الآن فى نظرها بين الحقيقة والخيال
— كما كان العهد بها تماما ابان المراهقة — فنراها تتحدث عن
« الأيام السعيدة » الماضية ، ناسية أنها منذ حين لم تكن تجد
فى تلك الأيام سوى ذكريات سيئة تحدث فى نفسها الخجل
والندم والاشمئزاز ! وقد تعتمد المرأة فى هذه الفترة الى تكوين
صداقات جديدة ، فنراها تقدم على توثيق علاقاتها بأناس

مشكوك في أمرهم ، أو تقرب اليها نساء ذوات سمعة سيئة ،
لمجرد أنها تجد في حياة مثل هؤلاء « النسوة » غموضا سحريا
يجعل لهن اغراء وجاذبية في عينيها (كما كان الحال بها طفلة
أو مراهقة) !

وهناك نساء أخريات لا يجدن في سن اليأس أى عزاء اللهم
الا بالالتجاء الى حصن « الدين » . وهنا قد تظهر المرأة اهتماما
كبيرا بمشاكل المصير والخلود وما بعد الموت ، فتعود الى قراءة
الكتب المقدسة ، وتهتم بممارسة الفروض والعبادات ، وتلتجىء
الى رجال الدين تلتمس عندهم المعونة والنصح والقيادة
الروحية . وقد لا تجد المرأة لديها من « الروح النقدية »
ما تستطيع معه التمييز بين الغث والسمين ، أو بين رجال الدين
وأهل الشعوذة والمحتالين ، فنراها تقع فريسة سهلة في يد
بعض الأفاكين ، خصوصا وأنها لا تريد المنطق والحجة والدليل ،
بل هى تريد الالهام والمعجزة والرؤى الخاصة ! وليس من
النادر أن تتحول المرأة المستهترّة في سن الشيخوخة الى عابدة
زاهدة ، فلا يعود لسانها يكف عن التمتمة بالأدعية والصلوات ،
ولا تصدر في مختلف تصرفاتها الا عن دوافع التضحية وبذل
الذات . وهكذا يكون « سن اليأس » في هذه الحالة بمثابة حد
فاصل بين فترتين هامتين من حياة المرأة : فترة التبرج
والاستهنار ، وفترة التعب والاستغفار !^١ وحينما تنظر المرأة

(١) هناك مثل ألماني يقول « ان العاهرة حينما تشيخ فانها تتحول الى راهبة » !
(A young harlot, an old nun) .

الى ماضيها البعيد ، فترى الحياة تافهة قصيرة الأمد ، أو حينما تنظر الى المستقبل ، فترى الأبدية غامضة لا نهائية الأفق ، فانها عندئذ سرعان ما تحاول التكفير عن ماضيها ، آملة أن ينزل الله « السكينة » على قلبها الذي طالما تقاذفته الأهواء والشهوات !

٤١ - وكثيرا ما يقترن سن اليأس بأزمات « غيرة » حادة ، فيقع في ظن المرأة أن زوجها يخونها أو يضطهدها ، وتمتد غيرتها الى أصدقاء الزوج وأخواته ومعارفه ومهنته . وهناك حالات « غيرة مرضية » تتحطم بسببها صداقات قديمة ، اذ قد تنقطع الصلة فجأة بين فتاتين بقيتا معا دون زواج طوال حياتهما ، ولكن سن اليأس لم يلبث أن جعل « الغيرة » تدب في قلب كل منهما ، بسبب تزايد الصراع الباطن في نفس احدهما أو كلتاهما معا ، فلم يلبث الخلاف أن دب بينهما ، واتتهى الأمر بهما الى قطع صلة كانت يوما قائمة على حب الجنس للجنس والواقع أن « سن اليأس » كثيرا ما يكون مصحوبا ببعض أعراض التهيج الجنسي ، خصوصا لدى النساء المتزوجات ، حيث قد يزيد من خطورة الموقف فتور النشاط الجنسي لدى الرجل ، مما قد يترتب عليه عجزه عن اشباع تلك الحمية الجنسية التي تظهر فجأة لدى زوجته . وحينما تجد المرأة نفسها باراء زوج فاتر خامد العاطفة ، فقد تشتعل « الغيرة »

في نفسها ، اذ يخل إليها أن زوجها قد انصرف عنها ، أو أنه قد اتجه بعاطفته نحو امرأة أخرى !^١

وليس أدل على تشابه « سن اليأس » و « مرحلة المراهقة » من أننا نلاحظ في كلتا المرحلتين تزايداً في القابلية للتهيج الجنسي ، حتى أن تخيلات « الدعارة » التي كانت تطوف بذهن المراهقة تعود الى الظهور من جديد في مخيلة المرأة الطاعنة في السن ، فنراها تتخذ صورة مرضية في بعض المحاولات التي قد تقوم بها المرأة من أجل اغواء الشبان أو اغراء بعض المراهقين ! واذا كان فرويد قد أطلق على المراهقة اسم « النسخة الثانية » من مرحلة الطفولة ، وذلك لأنه وجد فيها بعثاً جديداً لعقدة أوديب ، فربما كان في استطاعتنا أن نسمى « سن اليأس » باسم « النسخة الثالثة » من مرحلة الطفولة ، وذلك لأننا نجد في هذه السن علاقات من هذا القبيل تنشأ فيما بين الأمهات وأطفالهن البالغين . وهكذا نجد أن الحب الرقيق اللاجنسي الذي كان موجهاً يوماً نحو الوالدين يعود فيتجه الآن نحو الأبناء ، مع اكتسابه في الوقت نفسه لبعض عناصر جنسية لاشعورية . وتبعاً لذلك فإن « الابن » لا يلبث أن يحل محل « الأب » ، ومن ثم فإن حب الأم لولدها قد يتخذ صورة غرام عنيف لا يخلو من نوازع جنسية . وحينما تقع المرأة العجوز في حب شبان صغار السن ، فإنها تعبر بذلك

Cf. H. Ellis : « Psychology of Sex », p. 271. (١)

عن رغبتها في الحصول على « بديل » للابن . وربما كان من الطريف أن نذكر - في معرض الحديث عن التهييج الجنسي لدى النساء في سن اليأس - أن شخصا وجه يوما سؤالا الى الأميرة مترنك (Metternich) قائلا : « في أي سن تكف المرأة عن الاهتمام بالحب ؟ » ، فكان جوابها : « ان عليك أن تتجه بسؤالك نحو شخص آخر ، فأننى لم أتجاوز بعد الستين من عمري » !

٤٢ - وقد يكون من الصعب في كثير من الأحيان أن نحدد سمات المرأة في مرحلة الشيخوخة ، فان رد فعل المرأة ضد سن اليأس يتوقف الى حد كبير على نوع شخصيتها وأسلوب حياتها ابان المراهقة والأمومة . ولعل من هذا القبيل مثلا ما نلاحظه من أن النساء اللائى نجحن في حياتهن السابقة (ابان الزوجية) في اعلاء ميول « الذكورة » ، لا يلبثن أن يقعن تحت تأثير « عقدة الأنوثة » في سن اليأس . ولكن مهما كان نوع المرأة ، فانها لا بد في سن اليأس من أن تشعر بضرب من « الهبوط النفسى » ، شديدا كان أو عفيفا . وقد يقترن هذا الهبوط بشيء من الهواجس أو المخاوف ، فتشعر المرأة بضرب من « الهجاس » المرتبط بجهازها التناسلى ، وتتحدث عن عضوها التناسلى وكأنما هو « ورم » أو تضخم لا بد من استئصاله . ولا شك أن هذا « الهجاس » هو مجرد تعبير عن

(١) H. Deutsch : "Psychology of Women.", II, 471.

شعور المرأة بانحلال ذلك العضو الحيوى ، وتهدم وظيفته الرئيسية . وعلى كل حال ، فإن الملاحظ عادة أن الهبوط النفسى المقترن بسن اليأس يكون أخف وطأة لدى النساء ذوات النزعة السلبية المؤنثة منه لدى النساء ذوات النزعة العدوانية المذكرة . وهناك بطبيعة الحال عوامل خارجية كثيرة تتحكم فى نوع استجابة المرأة لأعراض سن اليأس . فالمرأة التى استمتعت فى حياتها الزوجية بتكامل نفسى قوامه الانسجام والاتزان ، قد لا تجد فى هذه المرحلة سوى « شهر عسل جديد » ! والمرأة التى كانت حياتها فائضة بالحب والجمال والسعادة ، قد تظل محتفظة بجمالها وأنوثتها الى أمد طويل . وإذا صح ما يقوله فرويد من أن « عشق الانسان لذاته قد يكون هو سر الجمال » ، فربما كان السر فى احتفاظ مثل هؤلاء النساء بجمالهن وأنوثتهن هو تلك « النرجسية » الفائقة التى تجعلهن ذوات جاذبية أنثوية خاصة ، وكأن الحب قد أحاطهن بهالة سحرية من الغموض المستحب الذى لا تقوى عليه الشيوخوخة !

وهناك حصن آخر قد تلتجىء اليه المرأة للاحتماء من صدمات « سن اليأس » ، ألا وهو « النشاط الاسترجالى » . والحق أن « الذكورة » تقوم دائماً فى حياة المرأة بدور « صخرة الخلاص » ، لأن التسامى العقلى الذى قد تقوم به المرأة حينما تلتجىء الى احتراف مهنة هو الذى يحميها فى هذه السن من تأثير كل صدمة بيولوجية . ولعل هذا هو السبب فى أن سن

اليأس قد يكون في حياة الكثيرات بمثابة فاتحة لعهد ذهبي مليء بالنشاط والانتاج . وهنا قد تكتسب المرأة بعض الصفات الرجولية ، فنجدها تظهر الكثير من الوضوح ، والموضوعية ، والاعتدال في أساليب تفكيرها ، كما قد تقترب في سلوكها من « رجال الأعمال » فتصبح عاملة حازمة لبقة ذات روح اجتماعية ... الخ ، وليس أدل على تزايد النشاط العقلي للمرأة في هذه السن ، من أن نساء كثيرات لم ينبغن في مجال تخصصهن إلا بعد بلوغهن لسن الستين . ولا شك أن تفرغ المرأة للكثير من ضروب النشاط الاجتماعي في هذه السن هو وليد انصرافها عن مشاغل الجنس وهموم البيت ، بعد أن زالت عنها تبعات النوع !

٤٣ - ولكن هل تنتهي مهمة « الأمومة » ببلوغ المرأة لسن اليأس ؟ أو بعبارة أخرى ، هل يصح أن نقول ان سن اليأس التي تزول فيها الفوارق بين الجنسين ، فتصبح حياة المرأة كحياة الرجل على حد سواء ؟ يبدو لنا مرة أخرى أن « الأمومة » ليست مجرد تعبير عن الأداء المباشر لوظيفة التناسل ، وإنما هي مبدأ اشعاع يمتد تأثيره الى كل دوائر النشاط النسوي . وليس أدل على ذلك من أن الأبناء الذين كبروا واستقلوا عن أمهم ، لا يلبثون أن يعودوا اليها بأبنائهم ، فتتسع دائرة الأسرة ، ويتضاعف سرور الأم بنعمة الأمومة . وعلى الرغم من أن علاقة الأم بأبنائها المتزوجين وبناتها المتزوجات لا تخلو من صراع وتناقض عاطفي ، إلا أن من

المؤكد أن الأم الطاعنة في السن تصن نفسها ضد سأم الحياة وخلوها من الانفعالات والعواطف بأن « تحيا » تجارب أبنائها ، وأن تنقص شخصياتهم ، وأن تجعل من انفعالاتهم وعواطفهم حالات وجدانية شخصية تعانيها في صميم وجودها ، على حد تعبير فرويد ^١ . والحق أن الأبناء هم الذين يكفلون للآباء الشباب الدائم ، ولولا البنون لما استطاع الآباء أن يتحملوا تبعات الزواج بما يترتب عليه من استسلام ضروري . وكثيرا ما تنقص الأم شخصية ابنتها حتى لتكاد تشاركها حب زوجها ! وعلى العكس من ذلك ، نرى أن الأم قد لا تحتمل في سن اليأس أن ترى زوجة ابنها حاملا ، أو أن تعرف أنها سوف تنجب لابنها ولدا ! أما حينما تكون زوجة الابن عقيمة ، فإن الأم قد تحقد عليها ، بل قد تتمنى لها الموت ، لأنها لم تستطع أن تهب لابنها نسلا ! ولعل من مظاهر الغيرة مثلا ما روته ماري بوناپرت عن مدام ليفيقر « Mme Lefevere » من أنها عزمت على قتل زوجة ابنها حينما علمت أنها كانت على وشك أن تضع مولودا من ابنها ! ولكن هذه كلها حالات مرضية شاذة ، وأما حينما تكون الأم ودودة فائضة الحب ، فإنها قد توثق عرى صداقة حارة مع زوجة ابنها ، دون أن تدع للتنافس أو الغيرة سبيلا الى نفسها . حقا ان زوجة الابن قد تتخذ

S. Ered : « Totem and Taboo », In The Basic (١)

Writings of Sigmund Freud: New-York, Modern Library, 1938, pp. 817 - 820.

صورة المرأة الدخيلة التي تستلب الأم طفلها ، ولكنها قد
تتسبب أيضا في عودة الابن الى محبة والدته ، بعد أن يكون
حبه لزوجته قد أصبح عاصما له من الوقوع تحت أسر حب
الأم العارم ! وهكذا قد تكتسب الأم حب شخصين معا : حب
ابنها الذي عاد اليها ، وحب زوجة ابنها التي قد أصبحت بمثابة
ابنة جديدة تكن لوالدة زوجها ما تكن له من الحب والحنان .
— ومهما يكن من شيء ، فإن انتهاء الوظيفة التناسلية لدى
المرأة لا يعنى موت عاطفة الأمومة لديها ، لأن الأم حينما
تستحيل الى « جدة » ، فانها تجد نفسها من جديد مدفوعة الى
القيام بدور « الأم المساعدة » ، كما كانت تفعل أثناء طفولتها
بالنسبة الى أمها . وهكذا نجد أن « الأمومة » هي تجربة حية
خصبة تلازم المرأة طفلة ، ومراهقة ، وأما ، وجدة !

خاتمة

أما بعد فقد حاولنا في هذه العجالة القصيرة أن نلم بأهم مراحل النمو النفسى الذى يختلف على شخصية المرأة ، فاستطعنا أن نلمس من هذا العرض السريع أن السمات الخلقية التى تتصف بها المرأة هى وليدة البيئة والتربية . حقا ان للتكوين البيولوجى أهميته باعتباره الأساس الذى يستند اليه معظم مقومات المرأة ، مثل السلبية والملازوشية والرجسية ، ولكننا لاحظنا أن معظم الفروق الكائنة بين الجنسين من حيث القدرة العقلية والانتاج الفكرى انما ترجع الى عدم تكافؤ الفرص وحاجة المرأة الى الثقة فى نفسها وفى المجتمع . وقد قادتنا دراسة التطور السيكلوجى لشخصية المرأة الى القول بأنه ليس ثمة « أنوثة محضة » ولا « ذكورة محضة » : اذ قد لاحظنا أن هناك عناصر ايجابية ، عدوانية ، ذكورية ، تدخل ضمن مقومات « الأنا » عند المرأة . وعلى الرغم من أننا قد جعلنا من « الأمومة » المركز الذى يوجه معظم دوافع المرأة ، فأننا قد نبهنا فى أكثر من موضع الى أنه ليس ثمة « أمومة خالصة » ، كما أنه ليس ثمة « أنوثة مطلقة » أو « ذكورة مطلقة » . وآية ذلك أن بعضا من العناصر الذكورية قد تدخل

في صميم النشاط الصادر عن دافع الأمومة ؛ فضلا عن أنه قد لا يكون ثمة موضع لوضع حد فاصل بين « الأم » و « العاهرة » ، ما دامت بعض العاهرات قد يتصفن ببعض صفات الأمومة . ولعل هذا هو السبب في أننا حينما نحاول أن ندرس « سيكولوجية المرأة » ، فأننا لا نلبث أن نتحقق من أننا مضطرون الى دراسة « سيكولوجية النساء » ، اذ أن هذا المفهوم المطلق الذي نسميه باسم « المرأة » يكاد يكون معنى مجردا قلما نلتقى به في صميم علاقاتنا بشتى الشخصيات النسوية . أما تلك الفروق الحاسمة التي اعتدنا أن نقيمها بين « الرجل » و « المرأة » ، فهي كذلك تعميمات مطلقة نلتجئ اليها لتسهيل البحث ، ولكنها قلما تنطبق على الأفراد الذين نلتقى بهم في حياتنا العادية . واذا كانت هذه هي حقيقة الصلة بين « الذكورة » و « الأنوثة » ، فما أحرانا بأن نبسم حينما نلتقى بأولئك الذين يفخرون برجولتهم ، متناسين أن هناك « أنثى » تكمن في قرارة نفوسهم ! « حقا ان هؤلاء قد لا تكون كل بيوتهم مصنوعة من الزجاج ، ولكنهم ينسون أن نوافذ بيوتهم على الأقل مصنوعة من الزجاج ، فما يليق بهم أن يقدفوا الآخرين بالحجارة ! » . وما دامت الرجولة الكاملة تكاد تكون معدومة (مثلها كمثل الأنوثة الكاملة) فليس هناك معنى لأن تتهم الآخرين بنقص الرجولة . فلنترك اذن لأولئك الواهمين تلك الأسطورة الرائعة — أسطورة الرجولة الكاملة — ولنقنع نحن بأن نكون « انسانيين » : ننظر الى الرجل على أنه

« انسان » قبل أن يكون ذكرا ، وننظر الى المرأة على أنها
« انسان » قبل أن تكون « أنثى » ، ونعتبر أن جوهر الانسانية
واحد في كل منهما ، مهما كان من أمر تلك الفروق البيولوجية
التي اقتضتها طبيعة تقسيم العمل بينهما .

يبد أن هذه « النظرة الانسانية » التي ندعو اليها لا تعنى
أن تتناسى المرأة وظيفتها الأصلية ، لكى تنافس الرجل فى
ميادين قد لا تكون هى بحاجة الى خوضها ، وانما يجب أن
تذكر دائما أن هدف المرأة الأسمى هو أن تكون « أما » ،
وأن تعمل على العناية بطفلها على الوجه الأكمل . حقا ان
الظروف قد تضطر المرأة الى العمل على عدم المساواة مع
الرجل ، خصوصا قبل الزواج حينما يكون عليها أن تكسب
عيشها حتى لا تحيا عالة على المجتمع ؛ ولكن من المؤكد أن
المرأة لا تمانع فى العودة الى وظيفتها الأصلية حينما تتاح لها
الفرصة لأن تساهم فى تكوين جيل سليم متزن ناضج . وأما
حينما يضمن عليها المجتمع بمثل هذه الفرصة ، فقد لا يكون من
حرج عليها ان هى اتجهت الى ميادين العمل النسوى حيث
هناك متسع لارضاء حاجتها الى الأمومة بطريقة روحية سامية .
وما من أحد يمانع اليوم فى أن تتمتع المرأة بسائر الحقوق التي
يتمتع بها الرجل فى شتى ميادين الحياة الاجتماعية والاقتصادية
والفكرية والسياسية . ولكن هذه المساواة الاجتماعية بين
الرجل والمرأة أمام القانون وفى الحياة العامة ، لا ينبغي فى نظرنا
أن تتم على حساب الأسرة . واذا كان البعض قد أصبح ينظر

الى « الأمومة » على أنها مجرد « وظيفة اجتماعية » ، بحيث يكون على الدولة أن تنهض بعبء تربية الأطفال وتنشئة المراهقين ، كما هو الحال مثلا في بعض البلاد الاشتراكية ، فان هذه النظرة في رأينا قد تؤدي الى القضاء نهائيا على « الأمومة » الحقيقية التى فيها ينعم الطفل بحنان الأم ورعايتها ، خصوصا فى السنوات الثلاث الأولى من حياة الطفولة . وليس يكفى حل مشاكل الأسرة أن نحرر المرأة اقتصاديا ، وأن نسمح لها بأن تساهم مع الرجل فى حمل أعباء الأسرة المالية ، بل يجب أن تكفل لها العناية بأسرتها دون التضحية بواجبات « الأمومة » التى تستلزم الاستقرار العائلى ، والارتباط المباشر بالطفل ، والعمل على تقديم الغذاء الروحى للأبناء صغارا وكبارا .

وهنا نجد أنفسنا بازاء مشكلة عسيرة : فقد أصبح من واجب المربين أن يفكروا جديا فى طريقة تعليم البنت ، ومدى صلاحية التعليم المشترك ، ونوع الدراسة التى يمكن أن تحقق لها تكامل الشخصية . وليس من السهل بطبيعة الحال أن تقطع برأى حاسم فى هذه المشكلة المعقدة ، ولكننا نعتقد أنه لا بد لنا من أن نذكر دائما أن عملية تكامل الشخصية لدى المرأة عملية عسيرة معقدة ، فضلا عن أن دور المرأة فى الحياة الاجتماعية الحديثة قد أصبح مزدوجا : إذ أصبح من الضرورى أن تعد المرأة للأمومة بما يترتب عليها من مطالب وتبعات ، وللحياة الحرة المستقلة بما تقتضيه من واجبات واستعدادات .

لما كان عامل الزمن لدى الجنسين مختلفا ، فان التعليم المشترك

قد لا يكون في مصلحة الجنسين ، اللهم الا في الفترات الأولى من الحياة الدراسية . ولكن اذا كان من الحق أن الاختلاط ضار ومستحيل ، اذا أريد له أن يكون ظاهرة عامة تستمر طوال مراحل التعليم ، فان هذا لا يعنى أن يتم الفصل بين الجنسين منذ البداية . وليس من شك في أن ضرورة اعداد النشء لمواجهة حقائق الحياة ومستلزمات العلاقات الجمعية هى التى تدعونا الى أن نفكر جديا في توفير أسباب التضامن والتآزر بين الجنسين . ولا نرانا في حاجة الى القول بأن جانبا كبيرا من مشاكل الحياة الاجتماعية انما يتولد عن خوف البنت من الجنس الآخر أو عجزها عن التعاون معه بسبب شعورها بالنقص . وحينما يكون الفرد قد نشأ في جو من العزلة والانعكاف ، بعيدا عن كل صلة أو رابطة بالجنس الآخر ، فانه قد يلقى الكثير من الصعوبات فيما بعد حينما تضطره طبيعة الحياة الاجتماعية الى تكوين علاقات مع الجنس الآخر ، أو العمل في مجتمع مختلط يضم رجالا ونساء . وقد دلتنا التجارب على أن كثيرا من مشاكل الحياة الزوجية ، انما ترد في نهاية الأمر الى هذا النوع من « التربية الانفصالية » التى فيها ينشأ الولد (أو البنت) في شبه عزلة جنسية ، دون أن تتاح له فرصة التعارف أو الاختلاط بالجنس الآخر . وليس من شك في أن هناك مهنا كثيرة تقتضى الالمام التام ببيكولوجية الجنسين ، ولكن لا عن طريق الكتب أو الدراسات المجردة ، بل عن طريق الصلات الشخصية والتجارب الحية . وكيف

يتسنى للطبيب أو المدرس أو رجل الدين أن يتعامل مع
الجنسين ، اذا لم يكن قد اختبر بنفسه تجربة « الاختلاط » ،
فاستطاع أن يعرف من خلالها الى أى حد تختلف سيكولوجية
المرأة عن سيكولوجية الرجل ؟ ولكننا نعود فنقول ان
سيكولوجية المرأة لا تعنى وصف ذلك الموجود المجرد الذى
أطلق عليه البعض اسم « الأنثى » الخالدة ، كما أن سيكولوجية
الرجل لا تعنى وصف ذلك الموجود المجرد الذى اعتدنا أن
نسماه باسم « الذكر » ، وإنما يجب أن نحذر القارىء من
الانسياق لتلك التجريدات الجوفاء التى لا تؤدى الا الى تزايد
الصراع بين الجنسين ، وعجز كل من الرجل والمرأة عن تحقيق
« التكامل » الذى يضمن لهما أسباب السعادة .

انهم يقولون ان الرجل هو « القوة » ، والمرأة هى
« الجمال » ، ولكن أليس للقوة جمالها ، كما أن للجمال قوته ؟
وهم يدللون على امتياز الرجل بقولهم ان الله خلق آدم أولا ،
ثم خلق حواء بعد ذلك من ضلعه ، ولكن أليس فى وسعنا أن
نقول مع القديس أوغسطين : « لو أن الله أراد أن تكون المرأة
حاكمة على الرجل لخلقها من رأس آدم ، ولو أنه أراد أن تكون
أسيرة للرجل لخلقها من رجله ، ولكنه خلقها من ضلعه ، لأنه
أراد أن يجعل منها شريكة للرجل مساوية له . » . أما فيما
يتعلق بقصة آدم وحواء وطردهما من الجنة ، فربما كان من
الطريف أن نستبدل بها قصة أخرى جاءت فى احدى الأساطير
لهندية القديمة . وهنا تقول الرواية انه حينما خلق براهيمة

الكون ، فانه أودع الرجل والمرأة في جزيرة نائية ساحرة
الجمال . وحينما اختار لهما براهيم تلك البقعة الفريدة خاطبهما
قائلا : « فلتجمع بينكما رابطة المحبة ، لأن ارادتي قد شئت
أن يكون الحب الصادق أساسا للزواج » وهكذا توثقت رابطة
الحب بين آدم وحواء ، ثم لم يلبث براهيم أن عقد الزواج
بينهما قائلا لهما : « امكثا ههنا ولا تغادرا هذه الجزيرة ! »
بيد أن آدم - ذلك المخلوق المتنقل الولوع بالأسفار -
سرعان ما مضى الى حواء يقول لها : « اننى أريد أن أمضى الى
بعيد » فتركته حواء يستطلع أنحاء الجزيرة ، الى أن قادته
قدماه نحو أقصى الشمال ، حيث أغراه سراب خداع أوهمه
بوجود جبال شاهقة ووديان جميلة مغطاة بالجليد الأبيض .
وعاد آدم الى زوجه يقول لها : « ان البلاد البعيدة لهى أجمل
بكثير من البقعة التى نسكنها ، فهيا بنا الى هناك . » ولكن
حواء - ذلك المخلوق المستقر الولوع بالثبات - لم تلبث أن
أجابته بقولها : « فلنمكث ههنا لأن لدينا كل ما نرغب فيه ،
وما بنا حاجة الى أن نهجر بعيدا . » وعاد آدم يدعوها الى
الهجرة ، فاستجابت له أخيرا ، ومضى الاثنان الى تلك المنطقة
البعيدة الضيقة من الأرض ، حيث حملها الرجل على ظهره
ومضى بها . غير أنهما سرعان ما سمعا صوت انفجار شديد
خلفهما ، فلما نظر الرجل الى الوراء وجد أن الأرض قد انهارت
وسقطت فى أعماق اليم . واختفى السراب ، فلم يكن ثمة غير

صخور ورمال ! وعندئذ تعالى صوت براهيمه يلعنهما وينهى
اليهما حكمه عليهما بالبقاء في الجحيم ! وهنا تكلم الرجل
فقال : « فلتحل اللعنة بى وحدى ، ولكن ليس بزوجى ، فانها
ليست خطيئتها بل خطيئتى » . وعندئذ أجاب براهيمه : « اننى
سوف أنقذها هى ، وأما أنت فلن يكون لك خلاص » ! وهنا
فاض قلب المرأة حبا فقالت فى حنان وخوف : « اذا كنت لن
تعفو عنه ، فلا تعف عنى أنا أيضا ! - اننى لا أريد أن أحيا
بدونه ، اننى أحبه ! » . وعندئذ ارتفع صوت براهيمه الاله
قائلا : « لقد عفوت عنكما معا ، وسوف أرفعكما وأرعى
أبناءكما من بعدكما » !

تلك هى أسطورة الرجل والمرأة على نحو ما تصورهما خيال
البشر ! ولكننا قلنا فى بداية هذا الكتيب اننا نريد أن نميط
اللثام عن لغز « المرأة » الخالد ، فكيف نهيب فى خاتمة المطاف
مثل هذه الأساطير المليئة بالشعر والسر والخيال ؟! ولكننا نعود
فنذكر القارىء بأن « الحب » و « الأمومة » هما الكلمتان
الأخيرتان فى « لغز » المرأة ، ولم تخل أسطورة بشرية من
التعبير عن هذين المعنيين بأسلوب جميل قد لا ترقى اليه أحيانا
أعشق التحليلات العلمية ! - وان البعض ليقول : « ان المرأة
هى المخلوق الذى لا يستطيع المرء أن يحيا بدونه ، ولا يستطيع
فى الوقت نفسه أن يحيا معه ! » وتبعا لذلك فان السعادة فى
الحب هى فى نظرهم أشبه ما تكون بالدائرة المربعة ! ولكن

دراستنا لسيكولوجية المرأة قد علمتنا أن السعادة ليست
منحة ، وانما هي ثمرة لخبرة طويلة وكسب متواصل . وحينما
يعرف الرجل كيف يعامل زوجته على أنها زهرة جميلة رائعة ،
فانها لن تلبث أن تملأ جو حياته بالعطر والبهجة والسرور !
فلتحاول ذلك يا صديقي القاري ، وسأحاول معك !

فهرس

صفحة

مقدمة

٣

الفصل الأول : الفروق البيولوجية بين الجنسين

٨

الفصل الثاني : البنت في دور الطفولة

٣٢

الفصل الثالث : الفتاة في مرحلة المراهقة

٦٣

الفصل الرابع : المرأة في حياتها الزوجية

٩٦

الفصل الخامس : المرأة في دور الأمومة

١١٦

الفصل السادس : المرأة في سن اليأس

١٤٨

خاتمة

١٦٣

نستفيد من هذه الميزة

مكتبة الثقافة السيكولوجية

بإشراف الدكتور عبد المنعم عبد العزيز المليجي

- سيكولوجية المرأة — للدكتور زكريا ابراهيم
- الزواج والاستقرار النفسي — للدكتور زكريا ابراهيم
- التعبير الموسيقي — للدكتور فؤاد زكريا
- الكابوس — للأستاذ نجيب يوسف بدوي
- الاحتمال — للأستاذ نجيب يوسف بدوي